
رواية
فاليريا لويزلي
قصة
أسناني
مكتبة
ترجمة: عبير عبد الواحد

«أنا أفضل بائع بالمزاد العلنيّ في العالم، ولكن لا أحد يعلم هذا لأنني من النوع المُتحفّظ الكَتوم. اسمي غوستاڤو سانشيز سانشيز، وإن كان الناس يدعونني بـ«الطريق السّريع»، بدافع من المودة على ما أعتقد. وِلِدتُ في باتشوكا، مدينة الرّياح الجميلة، ولي أربعة من الأسنان السّابقة لأوانها، وكان جسدي مغطّى بالكامل بطبقة رقيقة للغاية من الزَّغَب. ولكنني مُمْتنٌ لتلك البداية المشؤومة، لأنّ القباحة كما اعتادَ عمي الآخر يوربيديس لوبيز سانشيز أن يقول هي مُكوِّنة للشخصية».

«الطريق السريع» هو مسافرٌ حول العالم، وَنَسّاج قِصص، وجامعٌ للأشياء والحكايا، وبائعٌ أسطوريّ في المزاد العلني. أغلى مُقتنياته والأثيرة على قلبه هي أسنان مشاهير «سيئي السُّمعة»، مثلَ أفلاطون وبترارك وفيرجينيا وولف. كُتِبَت «قصّة أسناني» بالتعاون مع العمّال في مصنع خوميكس للعصير، وهي عبارة عن مَرِح فكِهٍ ذكيّ وسَارّ عبرَ الضواحي الصناعية في مكسيكو سيتي، وتأثيرات لويزلي الأدبية الخاصة والمميزة.



**

«لو أنَّ فيلا- ماتاس، وآيرا، وبورخيس (جميعهم ظهروا في الحكاية) قد تعاونوا فيما بينهم لوضع كتاب يدور حولَ بائع في المزاد العلني يقصّ القصص وشغوف في الأدب، لربّما رأينا شيئاً مثلَ قصة أسناني. فهي منفردة في نوعها من الناحية الأسلوبية، إلا أنها متجذّرة في الإرث الغني لأدب أميركا اللاتينية الفَكِه والتلميحيّ. كمثل شخصيتها الرئيسة، غوستاڤو سانشيز سانشيز، فإن قصة أسناني، هي في الوقت ذاته، غامضة ومميزة وأخّاذة وساحرة بصورة مبهجة».

جيرمي غاربر



قصة أسناني



Author: **Valeria Luiselli** | اسم المؤلف: فاليريا لويزلي

Title: **The Story of My Teeth** | عنوان الكتاب: قصة أسناني

Translated by: **Abeer Abdelwahed** | ترجمة: عبير عبد الواحد

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2022** | الطبعة الأولى: 2022





للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

+964 (0) 790 1919 290 — Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار — بيروت: بشامون - شارع المدارس

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street — Beirut: Bchamoun - Schools Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +961 175 2617 — +961 706 15017

+963 11 232 2289 — ص.ب: 8272 — +961 175 2616

فاليريا لويزلي



قصة أسناني

ترجمة : عبير عبد الواحد



حولَ المؤلِّفة

ولِدت فاليريا لويزيلي في مكسيكو سيتي سنة 1983، وترعرعت في كوريا الجنوبية وجنوب إفريقيا والهند. بعد حصولها على إجازة في الفلسفة من الجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك، انتقلت لويزيلي إلى نيويورك سيتي حيث أتمّت دراسة الأدب المقارن في جامعة كولومبيا ونالت شهادة الدكتوراه. تعمل حاليًا في تدريس الأدب والكتابة الإبداعية في جامعة هوفسترا في نيويورك. تُعدُّ لويزيلي واحدة من أبرز الأصوات في الأدب المكسيكي المعاصر، حازت جوائز عدة عن أعمالها التخييلية والواقعية، من بينها جائزتان من جوائز لوس آنجلس تايمز للكتاب، بالإضافة إلى جائزة الكتاب الأميركي. وقد رُشِّحت مرتين لجائزة دائرة نقاد الكتب الوطنية، وجائزة مراجعات كيركوس لأفضل الكتب الأدبية. ونالت أيضًا جائزة زمالة ماك آرثر سنة 2019، وجائزة راثبون فوليو الأدبية سنة 2020. كما حازت جائزة دبلن الأدبية المرموقة سنة 2021 عن روايتها أرشيف الأطفال المفقودين التي سلّطت الضوء على أزمة المهاجرين المكسيكيين غير الشرعيين. تُرجِمت كُتبها إلى أكثر من عشرين لغة. من أعمالها: «وجوه في الزحام»، «أرصفة» وهي مجموعة مقالات، و«قل لي كيف تكون النهاية: مقالة من أربعين سؤالاً»، و«قصة أسناني»، و«أرشيف الأطفال المفقودين».


MOHAMED KHATAB

إشَادات بِالكتاب

«إن قصة أسناني لهيَ مرَح صاخبٌ، حزين وماكر (نعم، مَرَح صاخب)، فهي تعيدُ إلى الأذهان قوّة القصص العظيمة وتأثيرها، وبالأخصّ تلك التي نقول لأنفسنا إزاءها، وبإصرارٍ مُطلق، بلى إننا نُصدّق».

• ستيڤن سباركس،
كُتُب التفاح الأخضر في الحديقة.

«مِن اليسير معرفة لماذا وقع اختيار مؤسسة الكتب الوطنية على فاليريا لويزلي بِصفتها واحدة من الخمسة المكرمين الذين تقلّ أعمارهم عن الخامسة والثلاثين عامًا. من خلال بضع فقرات فقط من روايتها الجديدة، قصة أسناني، سوف تنجذبُ بالكلّية إلى عوالم غوستاڤو سانشيز سانشيز –الذي يُدعى أيضًا بالطريق السريع– المدهشة. هذه القصة الآسرة زاخرة بشخصيات ومواقف فريدة، ولكن ما يثير الاهتمام أكثر هو ما يَظهر في المشهد الخلفيّ من القصة؛ ألا وهو كيفية كتابة هذا العمل بالتعاون مع العمال في مصنع العصير خوميكس في مكسيكو سيتي».

• شون دونلي، كُتُب باول.

«لو أنَّ بيلا - ماتاس، وآيرا، وبورخيس (جميعهم ظهروا في الحكاية) قد تعاونوا فيما بينهم لوضع كتاب يدور حولَ بائع في المزاد العلني يقصّ القصص وشغوف في الأدب، لربّما رأينا شيئًا مثلَ قصة أسناني. فهي منفردة في نوعها من الناحية الأسلوبية، إلا أنها متجذّرة في الإرث الغني لأدب أميركا اللاتينية الفَكِه والتلميحيّ. كمثل شخصيتها الرئيسة، غوستافو سانشيز سانشيز، فإن قصة أسناني، هي في الوقت ذاته، غامضة ومميزة وأخّاذة وساحرة بصورة مبهجة».

• جيرمي غاربر.

استهلال

بقلم مؤلفة الكتاب
(مُقتبس من الخاتمة)

«ينبغي القول إنّ أشياء كثيرة قد تغيّرت في هذا الكتاب منذُ الأجزاء الأولى التي قرأها العمال في المصنع، وحتى نُسخته النهائية هذه باللغة الإنكليزية. في حقيقة الأمر، الكتاب الإسباني مختلفٌ أيضًا عن الكتاب الإنكليزي، كما هو الحال مع كُتبي السابقة، التي راجعتها وأعدتُ كتابتها بالإنكليزية بصورة شاملة، لدرجة أنني أفضّلُ اعتبارها إصدارات أكثر منها ترجمات. فضلًا عن ذلك، تحتوي هذه النسخة الإنكليزية «كُتيّبًا» مكتوبًا بالكامل بقلم مُترجمتي السيدة كريستينا ماكسويني. إن خطّها الزمنيّ لهوَ خريطة وفهرس ومسردٌ للكتاب، الأمر الذي يزعزع القول المأثور والمتقادِم حولَ وجوب احتِجاب المترجِم، ويقترحُ نمطًا جديدًا للتعامل مع الترجمة؛ فهو من جهةٍ لا يعتمد على تقريب الكاتب من القارئ - من خلال تبسيط النص المترجَم وتمويهه - ولا على تقريب القارئ من الكاتب - بواسطة تحويل النص إلى نوعٍ من «الإنكليزية الدّخيلة». بدأ هذا الكتاب ضمن إطارٍ تعاونيّ، وأحبُّ اعتبار الأمر على أنه تعاون مستمر، حيث كل طبقة جديدة تُعدِّل المحتوى بأكمله».

• فاليريا لويزلي

إلى طاقم العاملين في مصنع خوميكس

الفهرس

الكتاب الأول

القصّة

(البداية، العرض، النهاية)

قد يُسمَّى المرء جون لأن هذا هو اسمُ أبيه، وقد تُسمّى المدينة دارتماوث لأنها تقع عند مصبّ نهر الدّارت. ولكن ذلك لا يحمل جزءًا من دَلالة كلمة جون؛ بأن يكون والد الشخص المدعوّ كذلك يحمل الاسم نفسه، ولا في كلمة دارتماوث، بكونها واقعة على مصبّ نهر الدّارت.

• جي. إس. ميل
(جون ستيوارت ميل)

أنا أفضل بائع بالمزاد العلنيّ في العالم، ولكن لا أحد يعلم هذا لأنني من النوع المُتحفِّظ الكتوم. اسمي غوستافو سانشيز سانشيز، وإن كان الناس يدعونني بـ «الطريق السّريع – Highway»، بدافعٍ من المودة على ما أعتقد. يمكنني تقليد جانيس جوبلين[1] بعد كأسين من الرّوم. وبمقدوري تفسير كعك الحظّ الصّيني. أستطيعُ إيقاف بيضة على رأسها على الطاولة مثلما فعل كريستوف كولومبوس

1- جانيس جوبلين (1943–1970): مغنية وكاتبة أغانٍ أميريكية، عُرفت بأنها السيدة الأولى في موسيقى الروك آند رول.
* (جميع الهوامش الورادة في الكتاب من وضع المترجمة).

في القصة الشهيرة. وأعرف كيف أعدُّ إلى ثمانية باليابانية: إتش، ني، سَن، شِي، غو، روك، شيتش، هاتشي. كما بإمكاني أن أطفو على ظهري.

هذه قصّة أسناني، ورسالتي حول المقتنيات والقيمة المتغيّرة للأشياء. ومثل أي قصة أخرى تبدأ هذه القصة بالبداية، ثم يأتي صُلب القصّة، ثم النهاية. وما تبقى، كما يقول صديقي دومًا، هو الأدب بما فيهِ من مبالغات واستعارات ومواربات وإيحاءات ومجازات وإضمارات لغوية. ولا أعلم ما الذي يأتي بعد ذلك. ربما الخِزي والموت، وأخيرًا شهرة ما بعد الممات. وفي تلك المرحلة لن أكون في مقام المتحدث بصيغة المتكلّم. سأكونُ رجلًا ميتًا، رجلًا سعيدًا مَحسودًا.

البعضُ يمتلكُ الحظّ، والبعض يتمتع بالجاذبية. ولقد حظيتُ بالقليل من الاثنين. كان عمي سولون سانشيز فوينتس[1]، وهو بائعٌ يتاجر بأربطة العنق الإيطالية فائقة الجودة، يقول لي دومًا: «إن الجمال والقوة والنجاح المبكر تفنى جميعًا، وإنها تُشكّلُ عِبئًا على كاهل أولئك الذين يمتلكونها، لأن احتمال خسارتها يُمثلُ تهديدًا قِلّة من يستطيعون احتماله». وما كانَ عليّ أن أقلق بشأن ذلك قط، إذ لم يكن من شيء سريع الزوال في طبيعتي. لديّ صفات دائمة فقط. ورثتُ من عمي سولون كلّ جاذبيته، كما تركَ لي أيضًا ربطة عنق إيطالية أنيقة. وهي بحسبِ قولِهِ كلّ ما أحتاجه كي أصير رجلًا كريمَ النسب.

ولِدتُ في باتشوكا، المدينة الجميلة ذات الهواء الطلق، ولي أربع من الأسنان السابقة لأوانها، وكان جسدي مغطّى بالكامل بطبقة رقيقة جدًا من الزَّغَب. ولكنني ممتنّ لتلك البداية المشؤومة، لأن القباحة كما اعتادَ عمي الآخر يوريبيديس لوبيز سانشيز[2] أن يقول هي مُكوِّنة للشخصية. عندما رآني أبي للمرة

1- كارلوس فوينتس ماسياس: (1928-2012) روائي وعالم اجتماع ودبلوماسي مكسيكي، يُعدُّ واحدًا من أهم كتّاب أمريكا اللاتينية في نهاية القرن العشرين في الرواية والمقال. رُشّحَ لنيل جائزة نوبل في الأدب عدة مرات.

2- يوريبيديس: شاعرٌ وروائي مسرحي يوناني ولد في سالاميس سنة 480 ق.م وتوفي في مقدونيا سنة 406 ق.م. كان يوريبيديس معاصرًا للروائيين اليونانيين إسخيلوس وسوفوكليس، وكان ثلاثتهم من أشهر روائيي اليونان القديمة كتب يوريبيديس عدداً كبيراً من المسرحيات، من أشهرها: ألسيستيس، وميديا، وهيبوليتوس، وأوريستيس، والكترا.

الأولى ادّعى أن ابنهُ الحقيقي أخذته الأم الواضعة حديثًا في الغرفة المجاورة. حاول بشتّى الوسائل، من بيروقراطية وابتزاز وترهيب، إعادتي إلى الممرضة التي سلّمتني له. ولكنّ أمي حملتني بين ذراعيها في اللحظة التي رأتني فيها؛ وكنتُ أسمر ومتورّماً صغير الحجم، ومرتجفًا مثل سمكة الفُقاعة في بطانية المستشفى. كانت أمي قد دُرِّبت على تقبل القذارة مصيرًا لها، ولكن أبي لا.

شرحت الممرضة لوالديَّ أن وجود الأسنان الأربع كانت حالة نادرة في بلدنا، لكنها حالة شائعة بين الأعراق الأخرى. وهي تُسمّى بالأسنان الخُلقية قبل الولادة.

– أيّ نوع من الأعراق؟ سألَ أبي مُتحفِّزًا للدفاع. قالت الممرضة: القوقازيّ يا سيدي.

– ولكن هذا الطفل داكنٌ مثل عينِ الإبرة، أجاب أبي.

– علمُ الوراثة مليء بالمعجزات يا سيد سانشيز.

لا بدّ أن هذه الجملة قد وَاست أبي. إذ أجبرَ نفسه أخيرًا على حَملي بين ذراعيه إلى البيت، ملفوفًا في بطانيّة سميكة من القطن الناعم.

بعد ولادتي بوقتٍ قصير انتقلنا إلى إيكاتيبيك، حيث عَمِلت أمي في الخدمة بالبيوت سعيًا وراء أسباب العيش. ولم يكن أبي يُنظّف شيئًا، لا ولا حتّى أظافره! كانت أظافره سميكة، خشنة، وسوداء. وكان يقلّمها عادة بفمه. ليس من التوتر، ولكن لأنه كان تَنبلًا ومُتعجرفًا. بينما كنتُ أؤدي واجباتي المدرسية على الطاولة، كانَ يتمعّن في أظافره صامتًا، مُستلقيًا بجانب المروحة على الكرسي المخملي الأخضر الذي ورثتهُ أمي من السيد خوليو كورتاثار[1]، جارنا في المبنى 4-A، الذي توفّي بمرض الكزاز. عندما قَدِمَ أبناء السيد كورتاثار لأخذ ممتلكاته، تركوا لنا ببغاءه كريتيريا، الذي حَلّت به حالة من الحَزَن وقَضى نحبهُ بعد بضعة أسابيع، والكرسي المخمليّ الأخضر الذي أخذ أبي على عاتقه الاسترخاء عليه كلّ مساء. ذاهِلًا عن العالم، كان يُمعن النظر في بقع الرطوبة بالسقف بينما يستمع إلى الراديو المحلي وينتزع قِطعًا من أظافره، الإصبع تلو الإصبع.

1- **خوليو كورتاثار(1914-1984)**: مفكر وكاتب ومترجم أرجنتيني. يُعدُّ واحدًا من أكثر كتاب القرن العشرين تجديدًا وأصالة.

مُبتدِئًا بإصبعه الصغيرة، كان يضغط على زاوية الظفر بقواطعه المركزية العلوية منها والسفلية، ويقتطع شظية صغيرة، وفي حركة واحدة، يمزّق الهلال من الظفر النامي. وبعد انتزاع الشظية يُبقيها في فَمِهِ بضع ثوان، يُقلّب لسانه، ويلفظها؛ فتنقذفُ وتستقر على دفتر واجباتي المنزلية. كانت الكلاب تنبح في الخارج بالشارع. فيما أتأمل قُلامة الظفر الملقاة هناك، ميتة وقذرة، على بعد بضعة مليمترات من طرف قلمي الرصاص. ثم كنتُ أرسمُ دائرة حولها، وأواصل القيام بالتمارين الكتابية بعد ذلك، مُتجنّبًا الدائرة بعناية. وهكذا، استمرّت نُتَف الأظافر بالتساقط من السّماء على دفتري المسطّر، مثلَ نيازك مدفوعة بالتيار الهوائي المنبعث من المروحة: إصبع الخاتم، والوسطى، والسبابة، وأخيرًا الإبهام. ثم أظافر اليد الأخرى. واستمررتُ في رصّ الحروف حول الحفر الصغيرة المحاطة بدوائر والتي خلّفتها قاذورات أبي المتطايرة على الصفحة. كنتُ عندما أنتهي من واجباتي ألملمُ الأظافر في كومة صغيرة وأضعها في جيب سروالي، وفي غرفتي أضعها في مظروف ورقي أحتفظ به تحت وسادتي. أثناء طفولتي، كانت مجموعة الأظافر كبيرة جدًّا لدرجة أني ملأت بها عدة مظاريف. نهاية الذكرى.

وَلم يَعُد لأبي أيّة أسنان. أو أظافر، ولا وجه حتى. حُرِقت جثّته قبل عامين، وبناءً على طلبه، نثرنا أنا وأمي رماده في خليج أكابولكو. وبعدها بِعام دفنتُ أمي إلى جانب شقيقاتها وأشقائها في باتشوكا، مدينة الرياح الجميلة. تهطل الأمطار هناك على الدوام، وبالكاد يَنفردُ الوقتُ بِنسمة هواءٍ واحدة. أسافرُ إلى باتشوكا لرؤيتها مرة كل شهر، في أيام الآحاد عادة. لكنني لا أتخطى بعد ذاك المقبرة، لأنني أعاني من حساسية من غُبار الطلع، وهناك يوجد الكثير من الزهور. أترجّلُ من الحافلة في مكان غير بعيد من البوابات، عند الجادّة الجميلة المزينة بتماثيل الديناصورات بالحجم الطبيعي، وأمكثُ هناك بين الوحوش الوديعة المصنوعة من الألياف الزجاجية، منقوعًا بالمطر، أصلّي وأقول يا أبانا إلى أن تتورّم قدماي، وَينال مني التعب. ثم أقفلُ عائدًا عبر الشارع، مُتفاديًا بعناية نُقع الماء المستديرة – مثل الحفر في دفتر طفولتي – وأنتظر الحافلة لتعيدني إلى المحطّة.

أول وظيفة لي كانت في كشك بيع الجرائد لدى روبين داريو[1]، على ناصية شارع أسيتيز وميتاليز (الزيوت والمعادن). كان لي من العمر ثمانية أعوام، وقد سقطت كل أسناني اللبنية، واستُبدِلت بأسنان أخرى، عريضة كما المعاول، كل واحدة منها متجهة في اتجاه مختلف. كانت آزول، زوجة مديري، أول صديق حقيقي أحظى به، وإن كانت تكبرني بعشرين سنة. كان زوجها يُبقيها حبيسة البيت. وفي الحادية عشرة من كل صباح يُرسلني إلى البيت مع مجموعة من المفاتيح لأرى ما الذي تصنعه آزول، ولكي أسألها إن كانت تودّ إحضار أي شيء لها من المحالّ التجارية.

وعادةً ما تكون آزول مُستلقية في سريرها بملابسها الداخلية، والسيد أونامونو[2] يعتليها. والسيدّ أونامونو هذا رجلٌ هرِمٌ غريب الأطوار له صدر حمامة، وكانَ لهُ برنامج في الإذاعة العامة. يفتتح برنامجه دومًا بالعبارة نفسها: «معكم أونامونو، المكتئبُ على نحو طفيف، الاصطفائي على نحو جذّاب، السياسي على نحو متعاطف». أبله! عندما كنتُ ألجُ الغرفة كان السيد أونامونو ينتفضُ واقفًا، يدسُّ قميصه، ويزرّر بنطاله بِتخبّط. وكنتُ، في الأثناء، أحملقُ في الأرض، وفي بعض الأحيان، أنظرُ من طرف عيني إلى آزول، التي تبقى مُستلقية على السرير، مُحدّقة بالسقف، وتمررُ رؤوس أصابعها على بطنها العاري.

حينما يَفرغ من ارتداء ملابسه بالكامل، ويرتدي نظّارته، كان السيد أونامونو يأتي إليّ وَينقُرني على جبيني بِراحةِ كفّه.

– ألم تتعلّم كيف تطرق الباب أيها الشارع؟

وقد دَأبت آزول على القدوم للدفاع عني: – اسمهُ الطريق السريع، وهو

1- روبين داريو(1867–1916): أمير الحروف القشتالية. شاعر وصحفي وسياسي نيكاراغوي، وهو الممثل الرئيس للتيار الأدبي الحديث في اللغة الإسبانية. يُطلق عليه أمير الأدب الإسباني أو الأب الروحي للشعر الحديث. من أشهر أعماله «أغاني الحياة والأمل».

2- ميغيل دي أونامونو(1864–1936): فيلسوف وشاعر وروائي ومؤلف تمثيليات إسباني. إضافة إلى كتبه الكثيرة، كتب ما يزيد عن 3000 مقالة قصيرة، وقد اكتسب عداء أربع حكومات متالية بسبب نقده السياسي الجريء.

صديقي. ثمّ كانت بعد ذلك تضحك ضحكة ودّية بسيطة، كاشفة عن أنيابٍ طويلة على نحوٍ محرِج، برؤوسها المسطّحة.

بعد أن ينسلّ السيد أونامونو أخيرًا من الباب الخلفي - وكلّهُ قلقٌ وَندم - كانت آزول تلفُّ نفسها بملاءة، مثل رداء الأبطال الخارقين، ثم تدعوني للقفز على السرير. وعندما نتعب، كنا نستلقي على السرير ونلعب بلياردو الجيب. كانت تعاملني بمنتهى اللطف دومًا. عندما كنا ننتهي من لعبتنا كانت تعطيني شريحة من الخبز، وكيس مياهٍ معدنية وقشّة، ثمّ ترسلني ثانية إلى كشك بيع الجرائد. على طريق الإياب، كنتُ أشربُ الماء وأضع القشّة في جيبي لوقتٍ لاحق. في النهاية جمعتُ ما يربو على عشرة آلاف قشّة، أُقسمُ بشرفي!

كان السيد داريو يسألني عندما أعودُ إلى الكشك: ما الذي كانت تفعله آزول؟ وكنتُ أتسترُّ عليها باختلاقِ تفاصيل بعض الأنشطة البريئة، كأن أقول: كانت تلضمُ الخيط في الإبرة لإصلاح ثوب تعميد طفل ابنة عمّها.

- أيّة ابنة عم؟

- لم تَقل.

- لا بدَّ أنها ساندرا أو بيرتا. هاكَ إكراميتك، والآن اذهب إلى المدرسة.

أنهيتُ المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وَانقضَت بِدرجات جيدة دون أن يلاحظها أحد، لأنني من النوع الذي لا يُثير المشاكل. لم أفتح فمي قطّ، ولا حتى لتلبية تفقد الأسماء في الطابور. وما كان صمتي مخافة أن يروا أسناني المعوجّة، وإنما لأنني من النوع المتحفّظ الحَذِر. تعلّمت كثيرًا من الأشياء في المدرسة. نهاية البداية.

في سنّ الحادية والعشرين حصلتُ على وظيفة حارس أمن في أحد المصانع في فيا دي موريلوس، نظرًا للتحفّظ ذاته، على ما أظنّ. كان المصنع ينتجُ العصائر. والعصائر بدورها تُنتج الفنّ. بمعنى أن أرباح مبيعات العصير موّلت أكبر مجموعة فنّية في القارّة. وقد كان عَملًا جيّدًا منذ ذلك الحين، مع أنني كنتُ مسؤولًا فقط عن حراسة مدخل المصنع، ولم يكن يُسمح لي قط بالدخول إلى صالة العرض حيثُ تُعرض الأعمال الفنية، كنتُ بمنزلة سَادنٍ لطائفة من الأشياء امتازت بالصدق والجمال الحقيقي. عملتُ هناك

مدة تسعة عشر عامًا. فإذا ما نحَّينا جانبًا ستة شهورٍ كنتُ مصابًا فيها بالتهابٍ في الكبد، وثلاثة أيام عانيتُ فيها من تسوّسٍ أسنان مريع لينتهي بي الحال بمعالجة مزدوجة لقناة جذر السنّ، وإجازتي السنوية، فأكون بهذا أنفقتُ بالضبط ثمانية عشر عامًا وثلاثة أشهرٍ بعملي حارس أمن بالمصنع. لم تكن أعوامًا عسيرة، ولكنها في المقابل لم تكن طيبة، ولكن في يوم من الأيام، أدارت فورتونا[1] عَجَلتها، مثلما يقول المغني نابليون[2]. ففي اليوم الأول من عيد ميلادي الأربعين، أُصيبَ عامل البسترة بنوبة هلعٍ أثناء استقباله ساعي الـ دي إتش إل (DHL)، وهو رجل مكتنز متوسط الطول. لم يشهد سكرتير مشرف البوليمرات نوبة هلعٍ من قبل، واعتقدَ أن السّاعي المتوسط القامة كان يعتدي على مُشغِّل البسترة، ذلك أن زميله في العمل كان قد وضع يديه على عنقهِ، واستحالَ لونهُ أرجوانيًا كالبرقوقة، شَخَصَ ببصره إلى الأعلى، وَخرَّ على قفاه، متداعيًا على الأرض مفرودَ الأطراف.

أمرني مدير خدمة العملاء بإلقاء القبض على ساعي الـ DHL المتوسط القامة. امتثالًا لطلبه، توجهتُ مباشرة إلى المجرم المزعوم. كان صديقي القديم وزميلي في العمل إلّ بيرو، داخلًا لتوّه من الباب، ركضَ نحونا وساعدني في تثبيت السّاعي المتوسط القامة على الأرض. ولكنني عندما ضربتُ الساعي على عموده الفقري برأس هراوتي -لم تكن ضربة شديدة بالفعل- راح يبكي بكاء تعيسًا. تركه إلّ بيرو وشأنه، فهو بالتأكيد ليس ساديًّا بطبعه. بينما كنتُ أدفع السّاعي إلى بوابة الخروج، سألتهُ بنبرة أكثر لطافة، عن هويّته. رفعَ يده عاليًا، ثمَّ دسّ اليد الأخرى في جيبه وأخرجَ محفظته. ثمّ، بيدٍ مرفوعة، سحبَ باليد الأخرى شهادة السواقة وناولها لي، غير قادرٍ على النظر في عينيّ مباشرة. وكانَ مكتوبًا على بطاقته: آڤيلينو ليسبر[3] – اسمٌ سخيفٌ!

طلب مني مدير خدمة العملاء التوجّه فورًا لإعانة زميلي المحتضِر،

1- **فورتونا أو عجلة الحظّ / القدر**: مفهوم انتشر في الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى للإشارة إلى الطبيعة المتقلبة للقدر. تُنسب عجلة الحظ أو القدر إلى الإلهة فورتونا التي تدير العجلة بعشوائية.

2- **خوسيه ماريا نابليون (1950)**: مغنٍّ وملحن وكاتب أغانٍ مكسيكي.

3- تلميح إلى الكاتبة والمؤرخة والناقدة الفنية المكسيكية آڤيلينا ليسبر (1973).

لأنه كان ما يزال مُمدّدًا على الأرض وعاجزًا عن التنفس. أخبرتُ السّاعي المتوسط القامة أنه بإمكانه الذهاب -وإن كان في الحقيقة، كل ما فعله هو الوقوف هناك والبكاء، بإمكانك القول إنه استحمّ بدموعه- ثمّ ركضتُ باتجاه مُشغّل البسترة، مستخدمًا طرف هراوتي لأشق الطريق من بين جمهرة المتفرجين الفضوليين. ركعتُ بجانبه، وحملتهُ بين ذراعيّ، وكان الحلّ الأمثل هو أن احتضنته بصمت حتى انتهاء النوبة. وفي الأثناء، كان إلّ بيرو يحاول التهدئة من روع ساعي الـ DHL، إلى أن هدأ هو الآخر أيضًا.

في اليوم التالي، استدعاني المدير إلى مكتبه، وأبلغني بأنني سوف أترقى.

قال لي على انفراد، إنّ الحراس من الدرجة الثانية، وأنت رجل من الدرجة الأولى.

منذ ذلك الحين، قرر كبار التنفيذيين أنه سيكون لدي كرسيّ ومكتب خاص بي، وستكون وظيفتي عبارة عن توفير الراحة والمواساة لمن يطلبها من طاقم العاملين.

«ستكون المشرف على أزمات الموظفين لدينا»، قال المدير بابتسامة خبيثة يمتاز بها أولئك الذين تردّدوا مرارًا على عيادة طبيب الأسنان.

مرّ أسبوعان، وبما أن عامل البسترة كان في إجازة مؤقتة، لم يكن هناك أحد في حاجة إلى مواساة. كان المصنع قد وظّف حارسًا جديدًا، وهو رجلٌ سمين، متظارفٌ ومُفرطٌ في الحماس والتودّد، اسمهُ هوتشيمين[1]، وكان يمضي اليوم كله في محاولة تجاذب أطراف الحديث مع الناس. الكِتمان ميزةٌ قلّة هم الذين يقدّرونها. كنتُ أعاينهُ بِاستعلاء من مكتبي الجديد. كنتُ قد أُعطيتُ كرسيًا دوّارًا قابلًا لضبط ارتفاعه، وطاولة مكتب مع دُرجٍ احتوى على تشكيلة رائعة من الأربطة المطاطية ومشابك الورق. في كل يوم، كنتُ أضعُ واحدة منها في جيب سروالي وآخذها إلى البيت. في نهاية المطاف تمكنتُ من تكديس مجموعة لائقة منها.

1- هوتشيمين: تلميح إلى الزعيم الفيتنامي هو تشي منه (1890-1969)، المؤسس والرئيس الأول للدولة الفيتنامية الشمالية، ورائد النهضة القومية في الهند الصينية. يُعتبر في الفيتنام بطلًا قوميًا، هَزم ثلاث دول عظمى، وحرّر بلاده ثلاث مرات.

لكن الأيام لم تكن كلها بَتلات زهرٍ مُخمليّة وسُحُبًا من المارشميلّو، كما يقول المغنّي نابليون. إذ إن بعض الموظفين في المصنع، وبالأخص مدير خدمة العملاء، بدأوا يتذمرون من أنني أتقاضى أجرًا مقابل قَضم أظافري والتحديق في السّقف. حتى إن البعضَ صاغَ نظرية مؤامرة مفادها أني أنا ومُشغِّل البسترة قد فبركنا هذه الخدعة ليحصل هو على إجازة مرضية مدفوعة الأجر، ولأحصل أنا على ترقية؛ بالضبط كما هي القصص المختَلَقة السخيفة التي يعتمدها الأشقياء المساكين، الذين لا يُحسنون التعامل مع حظوظ الآخرين السعيدة. بعد اجتماعٍ عام، نسّقَ المدير لإرسالي إلى دورات تخصّصية، لإشغالي من جهة، وَلِاكتسابِ المهارات المطلوبة لإدارة أزمات الموظفين المحتملة، من جهة أخرى.

وهكذا طرقتُ باب السَّفر. صرتُ رجلَ العالم. حضرتُ ندوات وشاركتُ في ورش عمل على امتداد الجمهورية، بل والقارّة حتى. بإمكانكم القول إني أصبحتُ جامعَ دوراتٍ تدريبية: إسعافات أوّلية، التحكم في القلق، التغذية والعادات الغذائية، فنّ الإصغاء والتواصل الحازم، نظام التشغيل DOS، الرجولة الجديدة، وعلم اللغة العصبيّ. كانَ ذلك عصرًا ذهبيًّا. إلى أن كانت نهايةٌ لكل شيء، كما هو حال كل الأشياء العظيمة والبَهيّة. حلّت بداية النهاية بدورة تدريبية اضطررتُ إلى حضورها في قسم الفلسفة والآداب بالجامعة الوطنية في المكسيك. كان ابن المدير هو من قدّم لنا الدورة التدريبية، لذلك لم يكن الرفض ممكنًا دون تعريض وظيفتي للخطر. فقبلتُ. كانَ اسم الدورة -الذي بثَّ فيّ الرعب والفزع والخجل- «الرقص لتحسين الاتّصال».

تضمّنَ التمرين الأول في ورشة العمل ابتكار نمطِ رقصة ثُنائية. واتّضحَ لي أن شريكتي في الرقص كانت فلاكا (فتاة نحيلة بالإسبانية)، التي برغم رهافتها ونحافتها، لم تكن جميلة ولا قبيحة. تلك الفلاكا استخدمتني عمودَ رقصٍ؛ رقصت من حولي بطريقة تلك الفنانة الرشيقة الغريبة والجذابة من زمن الستينات، تونغوليلي[1]، في حين كنتُ أفرقعُ بأصابعي، في محاولة مني

1- تونغوليلي (1932): يولاندا إيفون مونتس فارينغتون، المعروفة أكثر باسمها المسرحي تونغوليلي، هي راقصة وممثلة أمريكية مكسيكية.

لِتتبّع إيقاع الأغنية الصعب، الذي تجاهلتهُ هيَ تمامًا. زلّقت أصابعها على جسدي، ومررت أصابعها في شعري، وَحلّت أزراري. بينما واصلتُ أنا فرقعة أصابعي بِضميرٍ حيّ. بمضيّ الوقت انتهت الأغنية، كانت أنوثة فلاكا في كامل إزهارها وقد افتضّت عذريتي، وتحوّلتُ إلى راقصٍ حَسّنَ اتصاله، ووقفتُ هناكَ شِبه عارٍ على خشبة المسرح في قسم الفلسفة والآداب، خصيتاي بحجمِ ضفدعين. نهاية الذكرى.

لكي أحفظ ماء وجهي، لم يكن أمامي من خيار سوى الزواج بفلاكا بعد بضعة أشهر. وما إلى ذلك، وما إلى ذلك، ثم حَبِلتْ. وتركتُ وظيفتي في معمل العصير، لأنها فكرت أنني أمتلكُ موهبة حقيقية في الرقص وربما المسرح، وينبغي عليّ عدم إضاعة مزيد من الوقت. أصبحتُ مشروعها الشخصي، خدمتها الاجتماعية، مساهمتها في إنماء الأمة. نشأت فلاكا في مدرسة كاثوليكية للبنات فقط، وكانت منحرفة شأنها شأن أية فتاة مكسيكية بيضاء ثرية. لكنها تمردت، أو هكذا زَعمتْ، وكانت تدرس كي تصير بوذية. وبما أنها ادّخرت ما يكفي من إيراداتها –أكاذيبها بالأحرى، إذ كانت أموال والدها– فقد عرضت عليّ دعمها في حال اتضحَ أن الاشتغال في المسرح الراقص، بصفة خاصة، غير مربح بالنسبة لي. وكنتُ على استعداد لخوض التجربة. انتقلتُ للعيش في شقّتها الكبيرة في حيّ بولانكو، وَعِشتُ حياة الأمير. ثمّ، وكما يحدث دومًا، وبعد وقتٍ قصير، صارت فلاكا سمينة.

على رغمِ كل اتقادي وحيويتي، وعلى رغمِ اكتمال المميزات المادية الجسمانية لديّ فإنني لم أفلح بالعثور على وظيفة راقصٍ أو ممثل معاصر. خضعتُ لاختبار توظيفٍ في شركة إيكاروس للرقص المتداعي، وفي شركة البُعد المغاير، وفي السِّباق الكونيّ، وحتى في مجموعة الفضاء المفتوح، وهي كما يوحي اسمها، مُنفتحة للغاية وتقبل أيّ شخص. ولكن لا شيء يُذكر. كادوا يقبلونني في فرقة الفنون الشعبية، ولكن في النهاية ظَفرَ بالوظيفة الشاغرة شخصٌ بدينٌ له جسمٌ كجسم الجمبري وَاسمٌ مُبهرج إلى درجة السخف؛ بريندي.

تجوّلتُ على غير هُدىً لبعض الوقت، كما يقول المغنّي نابليون، مثل الخشب الأخضر الذي لا يحترق، والشجرة التي لا تضرب بجذورها في الأرض. قررت فلاكا أنه ينبغي عليّ تطوير نفسي، وهكذا أجبرتني على حضور فقه اللغة الكلاسيكية، ومحاضرات الأدب المعاصر في الجامعة الوطنية. في البداية كرهتُ حياة الفصول الدراسية، لكنني برعتُ فيها بل تطورتُ، وأعتقد أن ذلك مردّه لكوني رجلًا مرنًا. قلتُ في نفسي، إن كنتُ سأصيرُ أبًا، فأنا بحاجة إلى أن أكون قادرًا على سردِ القصص لابني. لا أعرف إن كنتُ طالبًا مجتهدًا، بما أنهم لم يعطوني العلامات قط، ولكن تلك الدراسة جعلتني أقرأ على الأقل. لم أكن معجبًا بالروائيين، ولكني أحببت بعض الشعراء، وكُتّاب المقالات كلهم بكل تأكيد: السيد ميشيل دي مونتين، والسيد روسّو والسيد تشيسترتون والسيدة وولف. بيد أني أحببتُ الأعمال الكلاسيكية أكثر من أي شيء آخر. قرأتها جميعًا من أول كلمة إلى آخر كلمة، أقسمُ بشرفي. وكان كاتبي المفضّل هو غايوس سوتونيوس ترانكويليوس[1]، الذي ما زلتُ أراجعُ كتابه (القياصرة الاثنا عشر)، أيقونة الحكمة، كلّ ليلة قبل أن أخلد إلى النوم.

حالما أكونُ في السرير، وقد رفعتُ البطانيات إلى صدري، كنتُ أدسُّ يدي اليمنى تحت الوسادة وأسحب الكتاب بالطريقة التي يَسحبُ بها راعي البقر مسدّسه من تحت وسادته، ولكن على نحو أبطأ قليلًا. ثمّ أغمض عينيّ، وبكلتا يديّ، أفتح الكتاب وأرفعه فوق رأسي، تاركًا صفحاته متدلّية فوقي. ثم شيئًا فشيئًا أُدني الكتاب من وجهي، إلى أن يلامس أنفي حوافّ الصفحات، ويتغلغل ما بين صفحتين منها. تانك الصفحتان أقرأ. وغالبًا ما أكتب تاريخ قراءتي للصفحات على الهامش مع بعض الملاحظات. ففي السادس عشر من أغسطس من عام 1985، على سبيل المثال، كتبتُ،

1- غايوس سوتونيوس ترانكويليوس (عاش حوالي 70-140م): مؤرخ وكاتبٌ روماني ولد في منطقة هيبو في الجزائر حالياً، وقد أرخ تاريخ الإمبراطورية الرومانية وخصوصاً في عصر يوليوس قيصر وشرح الحياة الاجتماعية والاقتصادية في روما القديمة. من أبرز أعماله «القياصرة الاثنا عشر» أو «حياة القياصرة»، الذي يتناول الإمبراطورية الرومانية من حقبة يوليوس قيصر إلى عصر هادريان.

«عندما أكبر سأصير مثلَ أوكتافيوس أغسطس[1]». ووضعتُ خطًّا تحت الفقرة التي قرأتها:

«كانت أسنانه صغيرة قليلة ومتسوّسة {...} كان معقود الحاجبين، وأذناه من الحجم الطبيعي، ولديه بروز في عظمة الأنف بالأعلى، مع انحناء عند أرنبتِهِ. وكانت بَشرته وسطًا ما بين الداكنة والفاتحة {...} ويُقال إنّ جسده كان مشوبًا بعيوب مختلفة الأنواع؛ كانت على صدره وبطنِهِ كوكبة مؤلفة من سبع وَحمات، تُحاكي كوكبة الدبّ الأكبر بالضبط، علاوة على بعض اللطخات المتصلبة والجافة، التي تشير إلى إصابته بالسّعفة الناجمة عن حكة في الجلد، والاستخدام الشديد للمكشطة في الحمّام {...}»

في التاسع عشر من سبتمبر من عام 1985، ضربَ مدينة المكسيك زلزالٌ عنيف، مثلما تَنبأ خوليان إيربيرت، المُنجِّم في صحيفة إيكاتيبيك. وبعد وقوع الزالزال بدقائق قليلة، ولِدَ سيدهارتا سانشيز توستادو. هذا هو الاسم الذي أطلقتهُ فلاكا على ابننا. من جهتي، كنتُ أفضل اسم «يوكو»، بما أنني كنتُ دومًا متحمّسًا للحضارة اليابانية والبيتلز[2]. ولكن بما أن المولود كان صبيًّا، تحتّمَ عليّ قبول اختيار فلاكا. كنا مُتفقين على هذا. ولدَ سيدهارتا سليمًا معافى، دون سمات مميزة. لن أقول إنه كانَ مولودًا جميلًا لكنه لم يكن قبيحًا أيضًا. نهاية الملحوظة.

عندما بدأ سيدهارتا يزحف، وقد تجاوزت فلاكا أخيرًا اكتئاب ما بعد الولادة، دعوتُ صديقي إلّ بيرو على العشاء. سَرت الأمسية على ما يرام، وكنا نستذكر الأيام الخوالي مشفوعة بالحنين، إلى أن قدّمت فلاكا القهوة،

1- **أوكتافيوس أغسطس** (63 ق.م – 14.م): أغسطس والمعروف باسم أغسطس قيصر، وهو ابن أخت يوليوس قيصر. يعتبر أغسطس مؤسس الإمبراطورية الرومانية، وهو أول إمبراطور لها. من أشهر أقواله: «وجدتُ روما مدينة من الطوب، وتركتها مدينة من الرخام».

2- **البيتلز**(1960): فرقة روك غنائية بريطانية شهيرة، كان جون لينون أحد أعضائها، وكان متزوّجًا من الفنانة والموسيقية اليابانية «يوكو أونو».

وأخبرني إلّ بيرو بأنه منذ بضعة أيام التقى هوتشيمين، الحارس البديل الذي كان يدردشُ كثيرًا. كان قد رآه في حانة مرتديًا بذلة باهظة الثمن، برفقته صحبة متميزة.مكتبة سُر مَن قرأ

سألتُه: ماذا فعل؟ كيف صار كذلك؟

أجاب: صار بائعًا بالمزاد العلني.

– هكذا فقط؟ سألتُ وأنا أزدردُ قهوتي بصعوبة.

وشرعَ إلّ بيرو في الشرح. يبدو أن ما حدث هو أنني عندما استقلتُ من وظيفتي في المصنع، استأذن هوتشيمين المدير في الانتساب إلى دورة تدريبية تأهُبًا في حال حدوث أزمات لدى طاقم الموظفين. أعتقدُ أنه فعلَ ذلك لأنه أرادَ أن يكون مثلي. وهكذا أُرسِلَ إلى دورة تدريبية واحدة، للإسعافات الأولية، لكن ذلك المكّار الصفيق انتهزَ وقت الفراغ للتسجيل في دورة المزاد العلني في الحيّ الكوري في مكسيكو سيتي في زونا روزا. بعدها بشهر، تخلّى عن وظيفته في المصنع، وبدأ يعمل في بيع السيارات بالمزاد. وكانَ عمله مُجزيًا وعلى خير ما يرام. أفضل من أعمالنا نحن البقية مجتمعين، قالَ إلّ بيرو.

في اليوم التالي، ركبتُ المترو إلى الحيّ الكوري، وَمشيتُ في الشوارع بحثًا عن إعلانات متعلقة بالمزادات أو بائعي المزادات، أو عن أي شيء له صلة بالموضوع على الإطلاق. بعد ساعات من البحث غير المجدي، وقد أنهكني الجوع، دخلتُ أحد المطاعم، وطلبتُ كيمتشي[1]، الطبق الذي يختصّ به المحلّ. في إحدى زوايا المطعم، كان هناك شابٌّ في الظلّ يعزف على الغيتار، ويغني لحنًا آسِرًا شجيًا عن رجلٍ غابَت عن أنظاره امرأة في محطة ميترو بَالدِيراس.

رحتُ أتصفح الجريدة، محاولًا طرد نوبات الكآبة الحثيثة التي تعصفُ بك عندما تأكل وجباتك في أوقات غير معتادة. واستغرقتُ في قراءة الجريدة، بما أنني كنتُ مُترعًا بالشفقة على الذات التي تَأتّت عن رفضي المتكرر في

1- الكيمتشي: طبق كوري تقليدي وأساسي، يشبه المخلل عند العرب، مكون من الملفوف والثوم والفلفل الأحمر الحار.

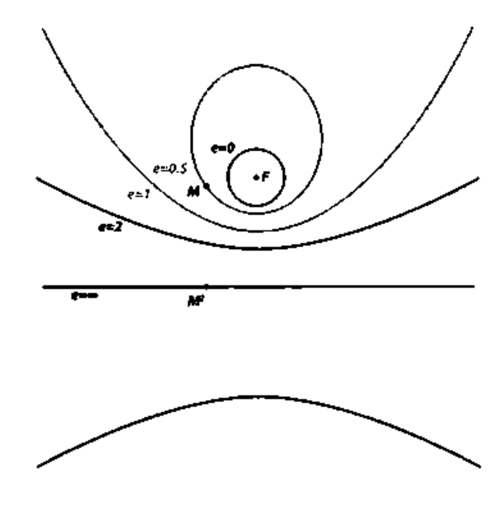
عالم الرقص والمسرح. إن بؤس الآخرين وَحظّهم الميمون يضعان أحوالي دومًا في منظورها الصحيح. في أحد الأيام قرأت قصة في الصحيفة عن كاتبٍ محليّ استبدلَ كلّ أسنانه. كانَ هذا الكاتب، على ما يبدو، قادرًا على تحمّل تكلفة طقم الأسنان الجديدة وأجور العملية الجراحية الباهظة لأنه كتبَ رواية. رواية! أبصرتُ مستقبلي. واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار. إن كانَ ذلك الكاتب قد تمكّن من علاج أسنانه بكتابةِ كتاب، فيمكنني فِعل ذلك أنا أيضًا! اقتطعتُ المقالة ووضعتها في محفظتي. وما زلتُ محتفظًا بها في جميع الأوقات، مثل تعويذة.

وكما ذكرتُ آنفًا، أنا رجلٌ محظوظ. عندما فرغتُ من تناول طعامي، وكنتُ سائرًا باتجاه الباب لمغادرة المطعم، وقعت عيني على ملاحظة مُسجلة على أحد الجدران. بخطٍّ نيّقٍ أنيق رأيتُ النداء إلى قَدري: «تَعلّم فنّ الدِّلالة والبيع في المزاد العلنيّ. النجاح مضمون. وعلى منهج يوشيميتو». وبينما كانت النادلة تُعِدّ فاتورتي؛ دوّنتُ العنوان على منديلٍ ورقي.

استمرّت الدورة التدريبية المكثّفة في فنّ البيع بالمزاد العلني مدّة شهرٍ كاملٍ، وأُقيمت كلّ مساء من الثالثة وحتى التاسعة في القاعة الخلفية من «كاريزما الشَّعر»، وهو محل حلاقة ياباني-كوري في كالي لوندريس. كانَ اسم المعلم -وهو ياباني الأصل- ماستر أوكلاهوما، لأنه درسَ حِرفة البيع بالمزاد العلني هناك، في أوكلاهوما، في الولايات المتحدة الأميركية. واسمهُ الحقيقي هو كينتا يوشيميتو، أما اسمه الغربي فهو كارلوس يوشيميتو. كانَ رجلًا حصيفًا أريبًا ذا أناقة وتميّز؛ كما كانَ التجسيد الحيّ للتكتم وضبط النفس. إن الوعي الذي يميزني، وكذلك ولائي واحترامي لكلٍّ من مُعلّمي ومهنتي، يمنعني من الكشف عن أسرار فنّ البيع بالمزاد العلني. ولكن ثمّة شيئًا وحيدًا بوسعي تفسيره بخصوص أسلوب يوشيميتو، المُستمَدّ من مزيج من البلاغة التقليدية والنظرية الرياضية عن الانحراف المركزي. وفقًا لِماستر أوكلاهوما، هناك أربعة أنواع من المزادات العلنية: الدائري، والبيضاوي،

والقطع المكافئ، والقطع الزائد[1]. وبالتالي، المنهج الذي ينحوهُ أي مزاد تحدّدهُ القيمة النسبية للانحراف المركزي (إبسيلون) لِخطاب البائع؛ أي درجة انحراف مقطوعه المخروطي عن محيطِ الدائرة (الغرض المُراد بَيعه في المزاد العلني). ويكون نِطاق القيَم على النحو الآتي:

إبسيلون النمط الدائري/ موارب أو إيحائي، يساوي صفرًا.
إبسيلون النمط البيضاوي/ المُضمَر، أكبر من الصفر ولكنه أقل من واحد.
إبسيلون نمطِ القطع المكافئ/ الرمزي أو المجازي، هو واحد.
إبسيلون نمط القطع الزائد/ المُغالى به، هو أكبر من واحد.



1- بعيدًا عن نظرية اللامركزية في الرياضيات، فإن للمفردات الواردة فيها معاني لغوية مغايرة في الإنكليزية ذات صلة أيضًا بموضوع الرواية:
Circular = دائري = موارب أو إيحائي.
Elliptical = بيضاوي = مُضمَر.
Parabolic = قطع مكافئ = رمزي أو مجازي.
Hyberbolic = قطع زائد = مُغالى به/ مبالغة.

بمرور الوقت، تطورتُ وَزِدتُ نوعًا آخر على طُرق المزاد الخاصة بماستر أوكلاهوما، على الرغم من أني لم أضعها موضع التنفيذ إلا بعد سنوات عديدة. كانت طريقتي المبتكرة تلك هي «المجازية»، التي انحرافها اللامركزي (الإبسيلون) لا نهائيّ، ولا تعتمد على المتغيرات العرضية أو المادية. كنتُ متأكدًا من أنَّ معلمي سيوافق عليها، وذلك ما حدث بالفعل.

أثناء اجتماعنا الأول، قعدَ ماستر أوكلاهوما قبالتنا على كرسيّ الحلّاق، واستخدمَ مِقصّين ليشرح لنا النمط «المكافئ» للبيع في المزاد. وبالفعل باعهما بنجاح، وذلك بِسرد قصّة قصيرة وبسيطة عن أصلهما. وعلى الرغم من أننا كنا جميعًا جالسين قبالته، وبين أيدينا الدفاتر وأقلام الرصاص، مدركين تمامًا أننا طلّابه ولسنا جماعة من المشترين من أية طائفة كانت، بما أننا دفعنا لتوّنا ثمنَ الدورة الباهظ، أخذَ معلّمنا المقصّين من على المنضدة وما زال يدلّل عليهما ويقنعنا بهما حتى وقفَ أحد الطلاب، وهو السيّد موراتو، وأخرجَ محفظته ودفع 750 بيزو ثمنًا لهما!

اعتادَ ماستر أوكلاهوما أن يقول لنا في نهاية كل جلسة، إن أهم ما في الحياة هو أن يكون لكَ مصير. كانَ يتفرّس في وجوهنا بتعبيرٍ لا يَشِي بشيء، وبالكاد تَعبرهُ أدنى ابتسامة. ثمّ كنا نَعُدُّ إلى ثمانية باليابانية، ونتنفس بعمق، بعيون مغلقة؛ لتنتهي الجلسة بذلك. كنا نستأذنهُ بالانصراف بإيماءة من الرأس له، ولزملائنا.

كان لدي هدف واضح، ومصير: كنتُ سأصيرُ بائعًا في المزاد العلني لكي أصلح أسناني، مثلما فعلَ ذلك الكاتب مع كتابه. والأهمّ من ذلك، كنتُ سأصلح أسناني فأتمكن من ترك فلاكا، التي باتت امرأة بدينة وسيّئة الطباع. وبعد ذلك، يتسنّى لي الزواجُ من امرأة أخرى، ربما فانيسا أو ماريا أو فيرونيكا، الطالبات الثلاث الأكثر جاذبية في الدورة التدريبية.

صارت فلاكا مؤذية ومُرهِقة للنفس. راحت تجبرني على التبوّل قاعدًا، لئلّا أُشرشر، وترسلني للنوم على الأريكة لأنني أشخر. وكانَ محظورًا عليّ المشيَ حافيًا لأن قدميّ تتعرّقان وتتركان بصمات على الأرضيّة. افتعلَت المشاكلَ معي لأنها كانت المموّلة وأنا المستهلك. كانت عندما تغضب

تناديني Gustabo (الكتوم) أو في بعض الأحيان Gustapo (الكُئبيّ المفزع) أو حتى Gestapo (الشرطة السرّية النّازية).

وفي الليل، عندما أعجزُ عن النوم كنتُ أتخيل فانيسّا وهي تناديني: يا مفتول العضلات، وماريّا تُسميني ديك المصارعة، وفيرونيكا تدعوني بالوسيم الطائش. وكنتُ أتقلّب في سريري، قَلِقًا يقظًا–مفتول لعضلات.. ديك المصارعة.. الوسيم الطائش– وأفكرُ بمستقبلي الباهر بِصفتي بائعًا في المزاد العلني، وبأسناني المستقبلية.

نظرًا لمثابرتي وحَذري وانضباطي خلال دورة ماستر أوكلاهوما حصلتُ على مِنحة «دورة تدريبية متقدّمة» مُدّتها ستة أشهر في مدرسة ميسوري للمزاد العلني في الولايات المتحدة الأميركية. وأما مِنحة جيرسي، المرغوبة أكثر، فقد فازَ بها السيد موراتو، مُشتري المِقصّين. لا أضمِرُ له أيّة ضغينة؛ لربمّا هو يستحقها فعلًا. لم ترتقِ الدورة التدريبية في ميسوري إلى مستوى توقعاتي، لأنها ركّزت على بيع المواشي. لكنها استحقّت التعب، بما أنني رجعتُ من الولايات المتحدة الأميركية وقد أجدتُ التحدّث باللغة الإنكليزية. وأثناء فترة تواجدي في ميسوري أيضًا كوّنتُ تصوّراتي عن نظريّتي المجازية وطوّرتُها. هذا الأسلوب، بالطبع، هو نِتاجُ عبقريتي، لكنني استلهمتهُ من الخُطَب اليومية لمعلّمنا الدلّال الكبير ومُغنّي الريف ليروي ڤان دايك[1]. بمجرّد ذِكر هذا الاسم، تتملّكني العزيمة والدافع للوقوف والتصفيق. كما أنني أختلفُ تمامًا مع عمّي الثاني خوان سانشيز بودريار[2] حين يقول: «قد لا يكون للأميريكيين هويّة، ولكن لديهم أسنانًا رائعة». ذلك أنّ ڤان دايك لديه هويّة راسخة وأسنان رائعة.

إنّ المعلم الكبير ليروي ڤان دايك هو من ألّفَ نشيد نقابتنا، «بائع بالمزاد العلني»، وهو يروي قصّة صبيّ من أركنساس أرادَ أن يتعلّم كيف يكون بائعًا في المزاد العلني، ويبدأ بالتمرّن كلّ يوم في حظيرة المزرعة التي يعيش فيها،

1– ليروي ڤان دايك (1929 – ولاية ميسوري): مغني ريف أميركي وعازف غيتار، اشتهر بأغنيته بائع المزاد العلني (The Auctioneer).

2– إشارة إلى جان بودريار (1929–2007)، عالم الاجتماع والفيلسوف والناقد الثقافي الفرنسي.

وكانت الحيوانات جمهوره. وعندما أدركَ والده ووالدته أنه يمتلكُ موهبة أرسلاه إلى مدرسة المزاد، حيثُ صارَ بائع مزادات مُحنكًا.

الإصغاء إلى ليروي ڤان دايك وهو يغنّي «بائع بالمزاد العلني»، وهي أيضًا الفكرة التي يتمحور عليها فيلمي المفضّل «على ماذا سأزايد[1]؟» منحني الحافز الذي احتجته لصقل وتطوير التفاصيل التصوّرية المتعلّقة بأسلوبي المجازيّ. لقد أدركتُ أن ثمّة ثغرة في مهنتي؛ ثغرة تعيّن عليّ سَدّها. لم يكن هناك من مُزايدٍ واحدٍ، مهما بلغت براعته في ترديد الأرقام الجنونيّة، أو خبرته في التلاعب بالقيمة التجارية والعاطفية للأشياء، بمقدوره أن يقول أي شيء عن بضاعته، لأنه لم يفهمها أو لم يكن مهتمًّا بها لذاتها، وإنما في قيمتها التبادلية فقط. وفَطِنتُ أخيرًا إلى معنى الكلمات التي قالها ماستر أوكلاهوما ذات مرة بنبرةٍ حزنٍ وتسليم: «نحنُ البائعين في المزادات العلنية مجرّد مبشّرين مأجورين ما بين الجنة وجحيم الطلب والعرض». ولكنني على أية حال كنتُ بصددِ استصلاح فنّ البيع في المزادات العلنية. وكنتُ بواسطة أسلوبي المبتكر قادرًا على دفن كلمة مبشّر في ماضي مهنتي البعيد. لم أكن مجرّد بائع متواضعٍ للأشياء، ولكني أوّلًا وقبل كل شيء، أنا عاشقٌ وجامعٌ للقصص الجيدة، وهي الطريقة الوحيدة الصادقة لتعديل قيمة الأشياء. نهاية التصريح.

رجعتُ من الولايات المتحدة الأميركية طافحًا بالطموح، وعلى استعداد لكي أسلك السبيل نحو أسناني الجديدة. وكانَ أوّل ما فعلته التنظيم لمزاد خاصّ بي. بِعتُ في المزاد العلني عدّة قطع من أثاث فلاكا القديم بِسعرٍ تمكنتُ فيه من شراء أثاث جديد لنفسي، ومن دفع إيجار شقّة لستة أشهر. لم أرَ فلاكا مرة أخرى ولله الحمد. ولكنني لم أرَ سيدهارتا أيضًا لسنوات عديدة. وعلى الدوام، كان هناك شيء ما يحتضرُ في صدري.

ركّزتُ على مهنتي. بدأتُ ببيع الأثاث في المزاد العلني بحيّ بورتاليس. بعد ذلك تعرفتُ إلى أنجيليكا. بِعتُ سيارات في المزاد العلني في

1- فيلم «What Am I Bid?» - 1967.

كويرنافاكا[1]. ثمّ التقيتُ بإيريكا. ورحتُ أُكثِرُ من السّفر والترحال. وفي تلك السّفريات، بدأتُ بجمعِ مجموعة من الأغراض التي اشتريتها بأسعار معقولة إلى حدٍّ ما أثناء التخفيضات الخاصة. بِعتُ التّحف والأثريات بالمزادات في جميع أنحاء أوروبا؛ والعقارات في كاليفورنيا، والتذكارات في ساو باولو. ومضيتُ قُدمًا في البيع بالمزاد العلني. ثمّ قابلت إستير، وهكذا دواليك حتى أُصبتُ بالبروستات، وحينذاك كَففتُ عن عَدِّ النساء، ولكن ليس المزادات. نظّمتُ مزادات لبيع المجوهرات، والمنازل، والأعمال الفنّية القديمة والمعاصرة، والنبيذ والمواشي والمكتبات، وموجودات ضخمة صُودِرت من تجارة المخدرات. ملأتُ جيوبي بالمال بالنصب والتحايل على أصحاب الملايين بضربة مطرقة: تذهب، تذهب إلى، بِيعت!

لكنني لستُ مُحدَث نعمة. أعتقدُ أنه كان بمقدوري امتلاك عشر شققٍ في ميامي، إلا أنني عوضًا عن ذلك قررتُ شراء قطعة أرضٍ في حيّ طفولتي في إيكاتيبيك. ومع وضع هذا في الحسبان، اشتريتُ قطعتي أرض متجاورتين، في شارع ديزنيلانديا الجميل؛ فمن الضروري الاستثمار في الثروات الوطنية. إذا ما جمعنا قطعتي الأرض معًا، أعتقد أن مساحتهما ستكون بضعة هكتارات. على الرغم من أني لم أكلف نفسي عناء الحسابات مطلقًا، بما أني لستُ مغلول اليدِ أيضًا. شيّدتُ على إحدى القطعتين منزلًا ملوّنًا من ثلاث طبقات مع أبراج، وحرصتُ على تركِ ما يكفي من حديد التسليح في المكان لمزيدٍ من التطوير، وليس لتفادي الضرائب مثلما يفعل معظم الناس في المكسيك. وفي الأرض المجاورة عمّرتُ مستودعًا حيثُ خزّنتُ طيلة حياتي. وقبالة هذا المستودع بنيتُ دار مزاد خاصّة بي. وفي أحد الأيام، كنتُ سأبتني جسرًا معلّقًا للربط بين المبنَيين. كنتُ قد وضعتُ بالفعل الخطط لذلك. ثمَّ تكريمًا لمعلّميَّ الكبيرين كنتُ سأفتتحهُ رسميًّا باسم دار مزاد أوكلاهوما – ڤان دايك. كلّ ما كان ينقص هو رخصة استخدام الأرض من طرف المجلس المحلّي، الذي دائمًا ما يُمنَحُ: غدًا!

سيكون من غير اللائق إنهاء قصتي من خلال سرد المنافع التي عادَ بها

1- كويرنافاكا (كواتيموك): عاصمة ولاية موريلوس في المكسيك وأكبر مدنها.

عليّ التدريب الشاق وعلى مجتمعي أيضًا، بالإضافة إلى موهبتي الفطرية في المزايدة. أودُّ أن أقول فقط، على سبيل السيرة الذاتية، إن كفاحي الطويل ضدّ الخِزي والذل اللذين ولدتُ فيهما وترعرعتُ، قد انتهى سنة 2000، أثناء رحلة نهاية الأسبوع التي قضيتها في ميامي، حيثُ ذهبتُ إلى مزادٍ للسيارات. ففي مساء يوم أحد، بعدما استلمتُ شيكًا ضخمًا جرّاء مزادٍ علني بعتُ فيه وبنجاح سبعًا وثلاثين شاحنة بيك أب، مضيتُ مع بعض الرفاق إلى مزادٍ لبيع التذكارات المهرّبة في حانة كاريوكي في ليتل هاڤانا. فعلى ما يبدو كانوا قد التقوا بعض الصديقات الجذابات في الليلة السابقة ورتّبوا للانضمام إليهنّ هناك. ووعدوني بأن الأمر يستحق العناء. ليس من عادتي الانغماس في سلوكٍ فاضح أو القيام بشؤون تجارية في أيام الآحاد، لكنني قررتُ مرافقتهم. ومما أراحَ بالي أن السيدات الأربع حينما ظهرنَ، بدونَ في حالٍ يرثى لها على أية حال.

عندما بدأ المزاد، ظننتُ أن لا شيء سيغويني، حيثُ بدا من الواضح أن التذكارات المعروضة كانت من الدرجة الخامسة؛ ساعة يد امتلكها سياسي أميركيّ ما، سيجارٌ يخصّ مليونير كوبياً غير معروف، رسالة بقلم روائيّ مغمور سافرَ إلى جزيرة كوبا في الثلاثينات. لم يكن في نيّتي تبديد نقودي، ولكن دونَ سابق إنذار، وضعَ إله الأشياء الصغيرة[1] الجنّة أمامي. والجنة لا تُشترى بِثمنٍ بَخس. هناك، في أعماق عزلة الأحد في مزادٍ علني في ليتل هاڤانا، وجدتها: إنها أسناني الجديدة.

في صندوقٍ زجاجي صغير رفعَ المُزايد عاليًا الأسنان المقدّسة التي كانت بانتظاري، وما عساها تكون سوى أسنان مارلين مونرو؟ نعم بالفعل، كانت أسنان مُغنّية هوليود. لربّما كانت مصفرّة قليلًا، فعلى ما أعتقد لأنّ المغنّيات يملنَ إلى التدخين. عندما افتتحَ البائع المزاد كانَ الجوّ مشحونًا بالقلق والتوتر. العديد من السيدات اللواتي أكلَ عليهن الدهر وَشرِب، بمن فيهنّ إحدى صديقاتنا، وضعنَ عينهنّ على هاتيك الأسنان. رجلٌ سمينٌ بملابس عتيقة الطراز بسطَ رزمة من الأوراق النقدية على طاولة البار، ووقفَ

1- إشارة إلى رواية «إله الأشياء الصغيرة» للكاتبة الهندية أرونداتي روي.

لإشعال سيجار. ولكني عاندتُ وأصررتُ إصرارًا على امتلاكها؛ وصارت الأسنان، أسناني، لي أنا.

أظهرتُ براعة في المزايدة لدرجة أن إحدى صديقاتنا -وهي صحفية أرجنتينية لها خدّان مترهّلان وشعر خشنٌ مثلَ مِمسحة الأرجل لكثرة ما تَعرّض للصّباغ- قد كتبت مقالة عن المزاد نُشِرت في جريدة ميامي صَن. كانت غيرتها من إنجازي واضحة، لأنها أرادت الأسنان هي أيضًا، فأتى مقالها قاسيًّا ملتويًا. ولماذا أهتمّ؟ وفكرتُ بأنها عمّا قريب ستأكلُ كلماتها، بينما أتناول أنا طعامي بأسنان مارلين مونرو. حالَ عودتي إلى المكسيك، زُرِعت كلّ سنٍّ من أسنان «زُهرَة» الشاشة الكبيرة في فمي على يدِ جرّاح أسنان عالميّ المستوى، الطبيب الشهير لويس فيليبي فابر[1]، مالك «إل ميغليور فابرو»، أفضل عيادة لتجميل أسنان، ومستودع في المكسيك. احتفظتُ بعشر من أسناني القديمة، أفضلها مظهرًا في الحقيقة لاستخدامها لاحقًا، فقط للضرورة.

بعد العملية بأشهر، لم أستطع تَنحية الابتسامة العريضة على وجهي. أريتُ الجميع خطّ ابتسامتي الجديدة اللامتناهي، وكنتُ كلّما مررتُ بمرآة أو نافذة تعكسُ صورتي، أرفع قبعتي بطريقة نبيلة، وأبتسمُ لنفسي. اكتسبَ جسمي النحيل وحياتي غير المتّزنة ثقةً ورصانةً بظهور أسناني الجديدة. كانَ حظّي مُنقطع النظير، وحياتي قصيدة، وكنتُ واثقًا أنه في يوم من الأيام سيكتبُ أحدٌ ما قصة جميلة عن السيرة الذاتية لأسناني. نهاية القصّة.

***

1- لويس فيليبي فابر(1974): شاعر وناقد وكاتب مقالات مكسيكي.

«كلّ سنٍّ في رأس الإنسان أثمن من الماسة»!

* ثيربانتس

الكتاب الثاني

المبالغات

إن الارتباط الاعتيادي ما بين الإشارة ومعناها ومرجعيتها، هو من النوع الذي تتوافق فيه العلامة مع معنىً محدد، وهذا المعنى، بدوره، ذو مرجعية محددة، في حين أن المرجع المحدد (كائن ما) لا ينتمي إلى إشارة وحيدة.

• غوتلوب فريجه[1]

بحلول عام 2011 طارَ صواب المكسيكيين. اشتدّت الخصومات فيما بين الجميع، وَسادَ آنئذ مناخٌ عام من العِداء والضّغينة؛ شعورٌ بالعيش على حافّة الكارثة. كان قد مرّ بعض الوقت منذ أن افتتحتُ مزادًا علنيًّا. وأعتقدُ أن ذلك مردّه إلى أن المكسيكيين مثل السّلطعونات في الدلو، وهذا لا يستلزمُ مزيدًا من الإيضاح. ضَعُفَت مهاراتي من قلّة الاستخدام. وكنتُ قد توقفتُ عن السفر أيضًا، لأنني أدركتُ في المقام الأول أن المكسيك رائعة، على الرغم من انهماك المكسيكيين وعدم ادّخارهم أي مجهود لتخريب كل شيء. في رأيي، خارج موطني الأصلي، باريس فقط تستحق الذكر، ولكن رغم ذلك، نعلمُ جميعًا أن مدينة كامبيتشي تَفوقها روعة. نهاية الملحوظة.

1- فريدريتش لودفيغ غوتلوب فريجه (1848-1925): فيلسوف ألماني وعالم منطق ورياضيات. يُعرف عنه أنه مُبتدِع الفلسفة التحليلية.

بدلًا من تبديد أموالي في السفر، أمضيتُ السنوات اللاحقة في الحيّ الذي أقطنه، أجمع القصص والأشياء التي ألتقيها صدفة في طريقي، أو تلك التي عثرتُ عليها في ساحة الخردة المحلّية، وهي مُنشأة جميلة أتاحَ لي مالكها صديقي خورخي إيبارغوينغويتيا[1] دخولاً خاصًّا إليها لكوني زبونًا مخلصًا. جمعتُ مما اكتسبتُ من أسفاري الدولية ومن مجموعاتي المحلية الجديدة مقتنيات جديرة بالإعجاب. كنتُ أعلمُ أنني يومًا ما سوفَ أُقيمُ مزادًا كبيرًا في منزلي؛ حيثُ سأمنحُ كنوزي لأناسٍ يستحقون هذا الامتياز، أناس مهذبين رُقاة؛ أصحاب رؤى واسعة. ولكن كلّ ذلك كانَ ما يزال في جعبة المستقبل، وأنا رجلٌ صَبور. كانَ ما يزال متوجّبًا عليّ الانتهاء من الجسر المعلّق الذي يربطُ المستودع بصالة المزاد، وكان من اللازم الحصول على رخصة استخدام الأرض، وعلى مقاعدَ مريحة من أجل المزايدين، والأهم من ذلك كلّه، كانَ عليّ توظيف شخصٍ لينسّقَ لي كتالوج مقتنياتي.

بالنسبة إلى الرجل المحظوظ، حتى الديك بوسعه أن يبيض، كما يغنّي «نابليون». ففي صباحٍ صيفيّ، أتى الأب لويجي أمـارا[2]، كاهن أبرشية القدّيسة أبولونيا[3]، ليقدّم لي مساعدة. أو هكذا ظننتُ. أوضحَ لي أن كنيسته قد دخلت في مرحلة ركود اقتصادي على إثر الأزمة العالمية. كانَ في حاجة إلى خدماتي باعتباري بائعًا في المزاد العلني واقترحَ عليّ مشروعًا، ووعدَ بأنه سوف ينفعني أيضًا من الناحيتين الروحية والمادية. ولِمَ الكذب؟ لقد أثرت عليّ الأزمة الاقتصادية أنا أيضًا. كنتُ بحاجة إلى المال الذي أكّد لي الأب لويجي أننا سنجنيه إذا ما تعاونّا في تنظيم مزاد علني للمُقتنيات في الكنيسة.

1- إشارة إلى الروائي والكاتب المسرحي المكسيكي خورخي إيبارغوينغويتيا (1928-1983) الذي حقق نجاحًا شعبيًا واشتهر بكتاباته الساخرة.

2- إشارة إلى الشاعر والمترجم المكسيكي لويجي أمارا (1971).

3- القديسة أبولونيا (249 ميلادية/ وفاة): ولدت في الإسكندرية لأبوين مسيحيين، ولُقِبت بشفيعة مرضى الأسنان والصداع، نظرًا للتعذيب الذي تعرضت له من تكسير أسنان ونزعها بكماشة وذلك لمجابهتها الإمبراطور داكيوس الذي أعلن عداءه للمسيحيين. أقيمت على اسمها مذابح وكنائس كثيرة في أوروبا ويُحتفل بعيد استشهادها في التاسع من فبراير من كل عام.

كانت خطة الأب لويجي بسيطة. مرّة في الشهر تُقدّم كنيسة القديسة أبولونيا خدمة لنزلاء دار رعاية المسنين في الحيّ «الشّفق الهادئ»، أو ربّما «الشّفق الجميل»، وربّما «الشّفق» فقط، اسمٌ من هذا القبيل، محبِط بقدر ما كان متوقعًا. كان من المزمع إقامة القدّاس الشهري المخصص للمسنّين في يوم الأحد التالي. وفقًا للأب لويجي، كانَ معظمهم من عائلات ثرية. وهم متقدمون في السنّ، ولكنهم موسرون. كان علينا الاستفادة القصوى من مكان وسياق القدّاس للحصول على بعض المال منه. سوف نبيع تلك الجماعة الشائخة من الأثرياء مجموعة من مقتنياتي من أجل تحصيل شيء من المال للأبرشية؛ ثلاثون بالمئة لي، وسبعون بالمئة للكنيسة.

في البداية اعتقدتُ أن المعادلة غير مُنصِفة، نظرًا لأن مساهمة الأب لويجي ستكون مقتصرة على استخدام كنيسته والمزايدين الذين على الرغم من كثرتهم، ما هم على أبعد تقدير إلا عصبة من كبار السنّ المعتلّين. ومع جمهور كهذا تكونُ فرص المزاد الجيد قريبة من الصفر. لكن الأب الموقر نبهني إلى التفكير في النفوس البائسة التي سيفرحها حضوري، وبخلاصِ روحي الطيبة أيضًا. وعلى الرغم من عدم يقيني بإيماني بالجحيم، فأنا أعدُّ نفسي من أولئك الذين يؤثرون السلامة على الندامة. علاوة على ذلك، فلقد وافق الأب لويجي، عن طيب خاطرٍ، على إجراء مزادٍ من نمط القطع الزائد (المُبَالغ فيه)، والذي كانَ الأكثر مُلاءمة للظروف.

قال: بالطبع أيها الطريق السريع، إن المبالغة هي وسيلة فعّالة لنقل القوّة العظيمة للروح القدس.

شرحتُ لهُ أن ما قصدتهُ هو أنه بإمكاني رواية القصص التي كانت درجة انحرافها عن قيمة المقطع المخروطي للأشياء المرتبطة بها أكبر من الصفر. وبعبارة أخرى، كما قال كينتيليان[1] العظيم ذات مرة، من خلال مبالغاتي يمكنني استعادة قيمة الشيء عبرَ «تجاوز لطيف للحقيقة». مما يعني، أن جميع القصص التي سأرويها حول القطع المعدّة للبيع ستكون مستندة إلى

1- كينتيليان (35م – 100): ماركوس فابيوس كينتليانوس، بليغ روماني وخطيب رائد من هسبانيا، ولدَ في مدينة قلهرة (إسبانيا حاليا) عاش في روما أثناء عصر نيرون.

حقائق مُبَالغ بها في بعض الأحيان، أو بعبارة أخرى، ستكون مُضاءة أكثر. إلا أن الأب لويجي، مثل جميع أبناء مهنته، يُعطون دائمًا أذنًا صمّاء لأي شيء تقوله لا يتوافق مع اعتقادهم بما يتوجب عليك قوله.

أمضيتُ بضعة أيام في اتّخاذ قرار بِشأن أفضل مجموعة من السّلع لبيعها في المزاد لجمهورٍ من كبار السن. تجوّلتُ في مستودعي، دوّنتُ ملاحظات، وبالطبع، رجعتُ إلى مجلّد «غايوس سوتونيوس ترانكيلوس» لأستقي منهُ الإلهام. خلال تلك الأيام، قرأتُ، بالصدفة ولحسن الحظ، مقالةً عن مزادٍ علني بيعَ فيه ضرسٌ يخصّ جون لينون. احتفظت مدبرة منزل جون لينون -دوت جارليت- بالضرس لأكثر من نصف قرن، ثم باعتهُ أخيرًا إلى دار أوميغا للمزادات. ومع أن دار أوميغا عرضتهُ بقيمة ستة عشر ألف دولار فإنه بيعَ أخيرًا باثنين وثلاثين ألف دولار. إن الفكرة العبقرية ليست سوى حِسبة صائبة؛ واحد زائد واحدٍ: تذكرتُ أنه من بين مجموعتي كان لديَّ أسناني القديمة. لستُ رجلًا ساذجًا، وأعرفُ أن أسناني ليست بقيمة أسنان جون لينون، ولكن يمكنني رفع قيمتها إن أحسنتُ استخدام طريقتي المُبَالغ بها. بمعنى، سأروي عن كلّ سنٍّ قصة مبالغًا بها حول إحدى شخصياتي المفضلة، بما يحاكي النمط الذي كتبَ به «سوتونيوس» عن شخصيّاته. بالنتيجة وكما يقول كينتيليان: «إن المبالغة ببساطة، هي إحداث شرخٍ في العلاقة بين الأسلوب والواقع».

عرضتُ مجموعتي وشرحتُ خطّتي للأب لويجي. وافقَ دون إبداء كبير اهتمامٍ بتفاصيل أسناني المبهرة، ولا بحكايةِ ضرس جون لينون. هذا هو دأب السياسيين، ورجال الدين أيضًا: مُغترّون بأنفسهم لدرجة أنه لا يعتريهم أدنى فضول حيال حياة الآخرين.

مررتُ بلحظة أخيرة من الشك والتردّد قبل إبرام الصفقة. لن يكون من السهل عليّ أن أعرض علنًا مثلَ هذا القسم الخصوصي من مجموعتي. علاوة على ذلك،كنتُ أفضل الاحتفاظ بهذه القطع إلى حين إجراء مزادي الكبير. في النهاية وافقتُ طبعًا، لأنني لستُ خسيسًا. ولأنني تذكرتُ أيضًا تلك الأمسية المتألقة عندما قرأتُ عن مزادٍ علنيّ أقامهُ أحد أفراد الحرس الإمبراطوري عقبَ اغتيال الإمبراطور «بيرتيناكس» مباشرة عام 193، وباعَ

فيه الإمبراطورية الرومانية بأكملها. في ضوء هذه الحادثة التاريخية، ستكون قلّة في اللياقة والوقار من طرفي إن لم أقبل التحدي البسيط الذي وضعهُ القدر في طريقي. نهاية التصريح.

في اليوم الذي سبقَ المزاد، أخذَ المرسول مجموعة أسناني إلى الكنيسة، حيث كان من المقرر أن تقضي أغراضي ليلتها. وفي وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي أتى الأب لويجي لاصطحابي. كنتُ أشعرُ بأني مضطربٌ ومتداعٍ من قلة النوم. بقيتُ الليل كلهُ مستيقظًا من الأرق، وربما لأن القمر كان مكتملًا. أعتقد أن الأب لويجي فسّرَ مظهري على أنه علامة قلق من المزاد الوشيك.

بينما كنا نجتاز البوابة الضخمة إلى الشارع سألني: «هل أنت متوتر؟»

أجبته: إطلاقًا! بينما يداي ترتجفان مثل زوجين من آلة الماراكا[1].

مشينا في صمتٍ يصعبُ تأويله لدرجة أني فضّلتُ عدمَ كسره. وفي منتصف الطريق شعرنا بالجوع، لذلك توقفنا عند كشك ماغاليتا لشراء آتوليه[2] الفراولة، واستأنفنا الطريق ونحن نحتسي المشروب من كوب فِلّيني. وبمجرّد أن صرنا عند مدخل الكنيسة عاد الأب لويجي إلى نفس الموضوع، وكانَ طرف شاربه ملطّخًا باللون الوردي من آتوليه الفراولة:

– لن تتراجع عن الموضوع، أليس كذلك؟

– المظاهر خدّاعة، يا أبتاه، أنا رجلٌ جَسور.

– اسمع أيها الطريق السريع، لن يكون الأمر سهلًا، ولكن عليك أن تضع في الحسبان أنه لا بد من إنقاذ الأبرشية من تفشّي الرأسمالية الذي يتهدّدها. اتفقنا؟ وفي فعلك ذلك تطهير لروحك، مفهوم؟

– مفهوم يا أبانا، ولكن لماذا تواصل الإلحاح عليّ بهذا الشأن؟

– أنا لا أُلحّ. فقط أردتُ أن أوضح لكَ أن هؤلاء الناس سيأتون لرؤيتك،

1- الماراكا: (خشخيشات) من أكثر الأدوات الموسيقية شهرة في أميركا الجنوبية واللاتينية.

2- آتوليه: Atole مشروب تقليدي ساخن يُصنع من دقيق الذرة، منشأهُ أميركا الوسطى.

وتوقعاتهم عالية. ربما أنت لا تدرك هذا لأنك تعيش في برجكَ العاجيّ، لكنكَ أسطورة، بالنسبة إلى كثير من الناس. الجميع في الأرجاء يعرفونك.

- أنتَ تمدحني يا أبتاه، تابع تابع، لا تتوقف.

- ولكن عليك أن تضع في اعتبارك، أيها الطريق السريع، أن ثمة أشخاصًا لا يحبونك كثيرًا بالضرورة. جميعهم يعرفونك، والبعض مُعجب بك، ولكن البعض الآخر لا يحبك مثقال ذَرّة. وربما هناك من يكرهك.

- أراكَ تحاول التخفيف من حِدّة أمرٍ ما، حسنًا، مثل من؟

- ابنكَ مثلًا.

- هل سيدهارتا آتٍ؟

- بالطبع.

- ولكنك أخبرتني أن مجموعة من كبار السنّ الأثرياء سيحضرون لشراء الأسنان. هذا ما اتفقنا عليه.

- بلى، ولكن عندما سمعَ سيدهارتا بأنك سوفَ تبيع جزءًا من مجموعتك الأسطورية، رغبَ في رؤيتكَ على أرض الواقع. إن فضولهُ لرؤيتك هو الذي سَاقهُ إليك.

- يا حبيبي، «اكتملَ النقل بالزعرور!»

- كنتُ أخشى أنكَ ستقول شيئًا مثل هذا.

- وما الذي تتوقعه؟ أنا بائع جادّ في المزاد العلني، ولم آتِ إلى هنا بصفتي مهرّجًا لأحد.

- لا تغضب، لم يقل أحدٌ ذلك، فقط تذكر أن هذه الكنيسة تمرّ في أزمة.

- نعم مثلما قلتَ لي سابقًا.

- فإذن، هل أنتَ مستعدٌّ أيها الطريق السريع؟

- إنني أستعيد هدوئي يا أبتي.

- هذا حسن.

- شيءٌ آخر فقط أيها الأب. هل تعرف قصة «ذات الرداء الأحمر» بالمعكوس؟

- عفوًا؟

- إنني أرددها دومًا قبل البدء بالمزادات: إنها تحلّ العقدة من لساني، وتُزيّتُ فكّي. ربما تودُّ قولها معي؟

- وكيف تُقال القصة؟

- الرغيصة تاذ الرداء الأحمر كانت تمشي عبر الباغة[1]، لالا ترا لالا ترا، عندما ظهر فجأة ذئبٌ كبير أشعر.

- رائع أيها الطريق السريع، رائع. استمرّ في ترديدها، وفي تمام العاشرة والربع ادخل إلى الكنيسة من باب غرفة المقدسات، وأكون قد منحتُ مباركتي النهائية. ينتهي القدّاس تمام العاشرة والنصف. في غرفة المقدسات ستجد صبي المذبح، وسيعطيك عقدًا لتوقّع عليه؛ مجرد إجراء شكلي. ثم سيرشدكَ إلى المنبر حيثُ ستباشر المزاد العلني، اتفقنا؟

- فَليكُن، يا أبانا.

- جيّد.

- اسمع يا أبتي، هل هو فتىً صالح؟

- من؟ سيدهارتا؟ إنه عامل مُجِدّ.

- ماذا يعمل؟

- يعمل في الحراسة مثلما كنت تعمل. يعمل أمينًا فنيًّا في المعرض المجاور لمعمل العصير، وليس في المعمل نفسه.

- يا للعَجَب! كان والدي يقول دومًا إن علم الوراثة مليء بالمعجزات.

- على أية حال، لقد تأخر الوقت وعليّ الدخول إلى الكنيسة لارتداء أثوابي. هل نحن جاهزان؟

- هل بوسعي أن أقول شيئًا أخيرًا يا أبتي؟

- نعم، هات ما عندك.

- مع فائق احترامي، ولا أقصد السخرية أبدًا، هناك لطخة وردية على شاربك.

1- الصغيرة ذات الرداء الأحمر كانت تمشي عبر الغابة.

اختفى الأب لويجي تحت قوس الرواق، وهو يمسّدُ شاربه ولحيته ويدهُ ملفوفة بطرفِ ردائه الكهنوتي. بينما واصلتُ ترديد القصة المعكوسة لذات الرداء الأحمر بيني وبين نفسي حتى حلول الساعة العاشرة والربع، وأنا أدورُ في الساحة شبه المهجورة قبالة الكنيسة: إلى أين أنتِ ذاهبة الميو أيتها الرغيصة يا تاذ الدراء الأحمر؟ إلى لمنز يتجد في الباغة[1].

ثمّ تبيّنتُ فجأة وجه سيدهارتا من بين أبناء الرعية الدّاخلين عبر الباب في مجموعات صغيرة؛ كانَ الفرخ الصغير صورة طبق الأصل مني. لم أرهُ منذ أن تركتُ فلاكا، لأن تلك الخنزيرة القذرة حرمته عليّ. ولكن ذلك لا يعني أنني لم أقم بواجبي: كنتُ أرسلُ شيكًا لرعاية الطفل كل شهر، حتى بلغَ مجموع حساباتي ثماني عشرة سنة، ثم توقفتُ عن إرسال المال، إذ لا فائدة من تربية الطُّفيّليين.

بينما كنتُ أتبعهُ من طرف عيني؛ رأيتُ سيدهارتا وهو يدخل الكنيسة فداهمني شعورٌ بنوبة قلق وشيكة. وأحسستُ بعرق بارد في راحة يدي، ورعشة في الفخذين والأرداف، وبِحاجة ملحّة إلى التبول، ورغبة بالالتفاف والهرب. أكانَ من الممكن أن وجود ابني قد أضلّني عن مَسعاي؟ قعدتُ على حافّة حوض زهور ثم استحضرتُ صورة مُعلميَّ كارلوس كينتا يوشيميتو، وفريد عصرهِ ليروي ڤان دايك. وفكرتُ في نفسي، أنا الطريق السريع! أفضل بائع في المزاد العلني بالعالم، لم أكن أبًا سيئًا، بوسعي تقليد جانيس جوبلين بعد كأسين من الرّوم. وأستطيعُ إيقاف بيضة على رأسها، مثلما فعل كريستوف كولومبوس. كما بإمكاني الطفوُ على ظهري. أوكلاهوما باعَ مقصًا بالمزايدة، والحارس الإمبراطوري باعَ روما بأكملها في مزاد علني. وأنا أيضًا، من الواضح أنني من الطراز الرفيع ذاته، بإمكاني إجراء مزاد علني لبيع أسناني الثمينة. إتش، نِي، سَن، شِي، غو، روك، شيتش، هاتشي، ومن ثمّ سلكَ الذئب الكبير الأرعش الطريق الأرقص عبر الباغة إلى لمنز الدجة.... والتهمها![2]

1- إلى أين أنت ذاهبة اليوم أيتها الصغيرة يا ذات الرداء الأحمر؟ إلى منزل جدتي في الغابة.

2- ومن ثمّ سلك الذئب الكبير الأشعر الطريق الأقصر عبر الغابة إلى منزل الجدة.. والتهمها.

في غرفة المقدسات، كان بانتظاري فتى المذبح، شابٌ طويل ونحيل عرّف عن نفسه باسم إيميليانو مونجي[1]. ناولني عقدًا لكي أمهرهُ باسمي. متجاهلًا الصياغة المعقدة، وقّعتُ صفحات العقد الواحدة تلو الأخرى، ثمَّ جلستُ ألهو بالقلم وأقلّبه بين أصابعي مثل الهليكوبتر إلى أن ظهرَ صبيّ المذبح ثانية في المدخل وأومأ لي.

كانت الكنيسة ممتلئة عن آخرها، وصُعقتُ برائحة «التالك» القوية في الهواء؛ أعتقدُ أن الطاعنين في السن يستخدمون التالك مثل الأطفال الصغار. لدى خروجي من غرفة المقدسات، وبينما كنتُ في طريقي إلى المنبر، وضعتُ كفي الأيمن على عينيّ ومسحتُ القاعة بنظرة واحدة مطولة، إلا أني لم أستطع تمييز سيدهارتا في الحشد المتهلل. كنتُ في ذلك الوقت مُتلهفًا إلى حدٍّ ما لرؤيته، وجعله يراني، لإثارة إعجابه. خلفَ المنبر، الذي ارتقيتهُ بتردد، كانت مجموعة أسناني مصفوفة على طاولة معدنية طويلة. أدرتُ لها ظهري بشيء من الحزن. صعدَ الأب لويجي، ووضعَ ذراعه حولَ كتفي، ثم همسَ في أذني، مثلَ مدرب كرة القدم، أرِهم قيمتك، أيّها البارع!

جذبتُ نفسًا عميقًا وبدأت:

أعزائي أبناء أبرشية القديسة أبولونيا، في هذا اليوم رعيّتنا بحاجة إلى كرمكم وإرادتكم والتزامكم. ولكن الكلمات خرجت مني كأنها نبرة سياسيّ غابر. حاولتُ تعديل صوتي، أن أُشرّبهُ بشيء من الحماس، وأن أمنحَ جمهوري ابتسامة عريضة بارزة الأسنان. لدينا هنا اليوم قطع ذات قيمة كبيرة، بما أن كل قطعة منها تنطوي على قصة مفعمة بِالعِبَر الصغيرة. هذه القصص مجتمعة تذكرنا بالمعنى الحقيقي بواحد من أهم نصوص الحِكمة في الكتاب المقدس: «العَين بالعَين، والسِّن بالسِّن». هذا القول المأثور الشهير ليس دعوة للانتقام، كما هو شائع، وإنما هو دعوة إلى تقدير التفاصيل الصغيرة في الأشياء. الله يكمنُ في تفاصيل الأسنان.

توقفتُ من أجل التصفيق. لكن الجمهور اكتفى بالنظر إليّ بِصمتِ الماشية المُتشكّك.

1- إيميليانو مونجي (1978): روائي وكاتب قصة قصيرة مكسيكي.

تمكنتُ من الحفاظ على تركيزي، وواصلتُ الكلام وقد رفعتُ صوتي قليلًا: جميع أصحاب هذه الأسنان الأصليين أُعتبروا من الطفيليات الاجتماعية، كُسالى وما فلحوا في شيء يُذكر، قد عانى العديد منهم من العَته والخَرَف، ومن جنون العظمة، وهوس الكتابة، والمالنخوليا، والهوس الشبقي، ومن الهوس الحادّ بالأنا. ولكن على الرغم من كل تلك الصفات السلبية كانوا أصحاب أرواح عميقة مُتبحِّرة وأسنان باهرة. بعبارة أخرى، كما قال عمي ميغيل سانشيز فوكو[1]، فيما يتّصلُ بشيء آخر، إن هؤلاء الرجال والنساء يُمثّلون «حيوات استثنائية تحولت إلى قصائد غريبة من خلال تقلّبات القدر التي لا يعرفها أحد»..

وإذا ما نُظِرَ إليها كمجموعة، فإن أسنان هؤلاء الأشخاص السيئي السمعة، بحسب المصطلح المعمول به في المزاد العلني، هيَ «بقايا مجازية». وليسَ عليكَ أن تكون مؤمنًا بالخرافات لكي تعي أن بعض الأشياء يمكنها تمرير صفاتها القوية إلينا عندما تُستخدَم استخدامًا صحيحًا.

اضطررتُ إلى كبح جماح نفسي لئلّا أبالغَ في الكلام، لأنهُ وكما يُبيّن كينتيليان: «عند استخدام المبالغة ينبغي توخي بعض الاعتدال، لأنه وعلى رغم أن كل مبالغة لا يمكن تصديقها، فإنه يجب عدم الإسراف بها، بما أنه ما من طريقة أخرى كما المبالغة يهوي بواسطتها الكُتّاب بسهولة في الأسلوب المصطنع (κακοζηλία)[2]، أو التكلّف المُفرط».

سوف أقصُّ عليكم القصص المذهلة لهذه الأسنان جميعًا، وسوف أحثّكم على شرائها، وأخذها إلى منازلكم، واستخدامها، أو ببساطة الاحتفاظ بها باعتزازٍ إلى أبد الآبدين. نعم، إلى الأبد. ثمّ أردفتُ بالقول -مُهوّلًا الأمر قليلًا بنبرةِ تهديد- وخلافَ ذلك، إن لم تجد هذه الآثار مالكًا في نهاية الجلسة، فسوف تُباع خارجَ البلاد. وآخر ما نريده هو أن يَسلب الآخرون القليل الذي نملكه.

1- إشارة إلى الفيلسوف الفرنسي الشهير ميشيل فوكو.

2- Κακοζηλία: وردت هكذا في النص الأجنبي وهي مفردة إغريقية تعني الأسلوب المُتعمد أو التقليد أو التنافس.

لاحظتُ أن هذه الحجّة الأخيرة، على الرغم من كونها غير صحيحة تمامًا، فإنها بدأت بأسرِ قلوب جمهوري الاشتراكيين، أعضاء حزب جبهة الكاردينست لإعادة الإعمار الوطني، ودونَ مزيدٍ من الكلام، استدرتُ نصفَ دورة، وتوجهتُ نحو مجموعة الأسنان، التقطتُ القطعة الأولى، ورفعتها عاليًا وأنا عائدٌ إلى المنبر، مثلَ عَرّافةٍ مستغرقةٍ في نشوتها في معبد دلفي[1]، وصدحتُ بترنيمتي، بالمهارة والسّحر اللذين لا يستطيع الإتيان بهما إلا العِظام أمثالي.

القطعة المبالغ بها رقم 1

إن أول قطعة لدينا هي سنٌّ في حالة متدهورة نوعًا ما. ومع ذلك، ومع الأخذ بعين الاعتبار قِدمها، فإن حالتها جيدة عمومًا، وبوسع المرء أن يقول إنها ممتازة أيضًا. إن التسطيح البارز لطرف السنّ يقود إلى الافتراض بأن مالكها الأصلي، السيد أفلاطون، قد تحدث وأكلَ باستمرار. كان طول السيد أفلاطون 1.65 متر، وعرضه 85 سم؛ كانَ متوسط القامة لكنه متين الجسد، ولهُ بُنية محارب. كانت له لحية صوفية قطنية طويلة، لونها بنيٌّ فاتح؛ وكان له شعرٌ كثيف من نفس اللون والملمس. كان السيد أفلاطون يرفلُ بالأزياء التقليدية لهاتيك الأيام، ويرتدي رداء فضفاضًا دونَ حزام. ولم يكن يلبس الصنادل.

في إحدى المرات قارنَ السيد أفلاطون بين فترة بزوغ الأسنان ووقوع الإنسان في الحبّ: «في هذه الحالة تدخلُ الروح في سَورَةٍ من الانفعال والهَيجان، وهذه الروح التي بدأت أجنحتها للتوّ بالنموّ، يمكن مقارنتها بطفلٍ تلتهبُ لثّته وتهيج بظهور أسنانها الأولى»، جميل، ألا تعتقدون ذلك؟

1- كاهنة دلفي: إشارة إلى «بيثيا» عرافة معبد (أبولو) دلفي Delphi الكائن في مدينة دلفي اليونانية، وكانت بيثيا تتلقى النبوءات مباشرة من الإله أبولو. اعتقد الإغريق بقداسة معبد دلفي في نظر الإله أبولو، ويُعتبر هذا المعبد الأقدم في بلاد اليونان القديمة، وقد بات مزارًا يونانيًّا دوليًّا.

توقفتُ مؤقتًا للحصول على تأثيرٍ أكبر. ثمّ بدأت نسائم الصباح الباردة تَسري عبر الكنيسة من الباب الرئيس العالي. وانتابني إحساسٌ بأن شعاعًا من النور الإلهي نزلَ من السّماء، وأنارَ المنبر بأعجوبة. رفعتُ بصري ولاحظتُ على الفور أن صبي المذبح مونجي يُسلّط الضوء الكشّاف عليّ من إحدى الشرفات. لم يكن نورًا إلهيًّا إذن، إلا أنه بثَّ فيّ الحماس. أخذتُ نفسًا: سيداتي وسادتي، من سيفتتح المزاد على السّن المُنقَّرة لأول رجل سيئ السمعة لدينا؟

ارتفعت يدٌ خجول من آخر الكنيسة: ألف بيزو. ثم تبعتها يدٌ أخرى، يدٌ أكثر حماسًا: ألف وخمسمئة بيزو. ثم يدٌ أخرى، وأخرى، وأخرى. وبيعت القطعة بخمسة آلاف بيزو. ليس سيئًا إطلاقًا، على سبيل التحمية. اشترتها امرأة عجوز صغيرة القدّ ترتدي ملابس فاخرة. يقول كينتيليان موضّحًا: «إن لدى جميع البشر نزعة طبيعية إلى تعظيم أو تحقير كل ما يعترضهم، ولا أحد يقنع بالحقيقة المحضة!» وأعتقد أنه من أجل ذلك السبب بِعتُ السن الأكثر تهالكًا في مجموعتي بمثل ذلك السعر المرتفع. صقلتُ حنجرتي، وتابعتُ عملي الشائن.

القطعة المبالغ بها رقم 2

صاحب هذه السّن من أصل شمال إفريقي، كانَ متوسط الطول، وله ذراعان طويلتان نحيلتان، وبشرة ناعمة. ثمّة جدل دائر فيما إذا كانَ أسود أو أبيض اللون. برأيي، كانَ أسود على نحو لا لبس فيه. اسمهُ أوغسطين أسقف هيبون[1]، وكانت على رأسه بقعة صلعاء أشبه بفوّهة بركان. وإن كانَ بمقدورنا النظر في قلب هذا البركان لاكتشفنا واحدة من أكثر الذاكرات بالغة التعقيد الأشبه بمتاهة، والناجمة عن اتحاد الطبيعة الأم مع الله الآب. هذه

1- القديس أوغسطين -أوريليوس أوغوسطينوس- (354-430): كاتب وفيلسوف وعالم لاهوت كاثوليكي، ولدَ في طاغست في إفريقيا الرومانية (حاليًا سوق أهراس، الجزائر) من أب وثني وأم مسيحية. من أشهر أعماله «الاعترافات». وأما «هيبون» أو «هيبو» فهي مدينة عنّابة الجزائرية، كانت من أغنى المدن الإفريقية التي سيطر عليها الرومان، وهي حاضنة القسّ أوغسطين الذي ما تزال كنيسته تطلّ على هذه المدينة الساحلية.

الذاكرة الاستثنائية التي كانَ بابها الأرضي المسحور هو بالضبط هذه السنّ التي أمامنا اليوم، قد قارنها القديس أوغسطين نفسه ذات مرة بريفٍ مفتوح لا نهاية له ولا حدّ، حيث تُخزَّن كل نُسَخ الانطباعات التي تدخل عبر الحواس. فبالإضافة إلى تبايناتها العديدة؛ هناك كل الأشياء التي اؤتمِنَت عليها؛ أعداد الرياضيات المجردة، أولى ذكرياته عندما كان صغيرًا -صحيحة كانت أم مغلوطة- وحتى فيما هو أبعد من ذلك، كانت هناك كل الأشياء التي بَدَت مَنسية ولكنها لم تكن كذلك في الواقع.

هل ترونَ هذه الفجوة في تاج السن؟ لو كان بمقدورنا الولوج إلى تلك الفتحة، والتحرك صعودًا عبرَ متاهة القنوات التي تربط الفمّ بالجمجمة حيث تتجذّر فيها الأسنان؛ في واحدة من حجيرات الدماغ الأكثر نأيًا سنجد هذه الذكرى: طالب البلاغة الشاب -وهو بالطبع أوغسطينيوس نفسه- يعاني من آلام فظيعة مبرحةٍ في أسنانه. الشاب محاط بالعائلة والأصدقاء، وهم يعتقدون جميعًا أنه سيموت عما قريب لأنّ ألمه شديد لدرجة أنه لا يستطيع فتح فمه ليشرح لهم عن بلواه وعذابه. وفي لحظة معينة، استجمعَ قواه وكتبَ على لوحٍ شمعيّ: صلّوا من أجل عافيتي. رفعَ الأهل والأصدقاء أكفّهم بالدعاء وشُفيَ الشاب الصغير. لقد كانت معجزة. وقرر حينذاك أن يكرّس حياته لله بواسطة كتاب بدأ بتأليفه بعد سنوات قليلة فقط، وكان ذلك كتابه الشهير «الاعترافات». نعم صحيح، هذا الرجل النبيل ألّفَ كتاب «الاعترافات» العظيم بسبب وجعٍ في الأسنان. من سيفتتح باب المزايدة على ضرس «أوغسطين أسقف هيبون» الزاخر بالذكريات؟

أظهرَ العديد من أبناء الأبرشية اهتمامًا. عرضَ المزايد الأول خمسمئة بيزو. أراد التالي عرضَ مبلغ أقلّ وليسٍ أكثر، مستجديًا تعاطفي بالادعاء أنه أُصيب بالخرف مؤخرًا، وأنه بحاجة حقًا إلى تلك السّن أكثر من أي شخص آخر. بيد أن أصحابه على المقعد سارعوا إلى إسكاته، وأجبروه على القعود، محتجين بأن قضيّته ليست حالة خاصة. في نهاية الجولة، اشترت سنّ القديس أوغسطين سيّدة شاعرة، لها وجه وجسم بومة، بثلاثة آلاف بيزو. تناولت السنّ الثالثة من على الطاولة خلفي، وعدتُ إلى المنبر.

القطعة المبالغ بها رقم 3

إنّ صاحب هذه القطعة رجل ذو مكانة مرموقة، ولهُ تقاطيع متناغمة، ووجهٌ حَسن لافتٌ للنظر. عُمِّدَ باسم فرانشيسكو بيتراركو[1]، ولكن درجت تسميته بترارك، على ما أعتقد لأنه بدا أكثر بطريركية. كانَ شاعرًا وكاتب أغانٍ، وكانَ كسولًا مثلهم جميعًا، وكذا كانَ مُتقلّبا لا يَثبت على حال، لكنهُ كانَ بارعًا.

منذ بضع سنوات، عَمَدت مجموعة من العلماء إلى فتح قبره، لأن الحكومة الإيطالية الموقرة أرادت الحصول على نسخة دقيقة ونهائية لوجههِ لإحياء الذكرى المئوية السابعة لوفاته. لدى إعادة تجميع الجمجمة، اشتبهَ العلماء في أن تلك العِظام على الأرجح تخصّ امرأة. كما أنهم أجروا اختبارات الحمض النووي على الأضلاع والأسنان القواطع. بعد عدة أيام، أدلى الطبيب كاراميلي، رئيس فريق العلماء، بتصريح عام أشارَ فيه إلى أن الاختبارات أكدت شكوكهم، كان الرأس «مُلفقًا». أُلقيَ اللوم بفقدان الرأس الأصلي على الأب توماسو مارتينيلي[2]، وهو قسّ مسكين من القرن الرابع عشر، الذي بالإضافة إلى ذلك اعتُبِرَ أنه كانَ مدمنًا على الكحول. دونَ مزيدٍ من الأدلة، أُدينَ مارتينيلي ببيعه رأس بيترارك الجميل لبعض المقامرين من أجل شراء عدد قليل من براميل النبيذ. ومالم يخطر في بال أي سياسي إيطالي هو أن الجثمان في القبر يخصُّ شخصًا آخر، وأن الرأس كان للسيد بترارك.

بإمكاني أن أؤكد لكم أن هذه إحدى أسنان بترارك. أحد الأدلة التي لا يمكن دحضها هو أن هذه السن انعكاس دقيق لشخصيته. الأسنان هي النوافذ الحقيقية للروح؛ إنها اللوح الفارغ الأبيض الذي نُقِشَت عليه جميع فضائلنا ورذائلنا. امتازَ السيّد بيتراركو بمزاجٍ سريع الغضب، وبذكاء حادّ، وبالضعف حيالَ الملذات الحسّية؛ كانَ أكثر شَبقًا من الماعز، ومن الهيّن تخمين ذلك بإلقاء نظرة واحدة فقط على طول هذا النّاب. ويُقال إن بيتراركو

1- فرانشيسكو بيتراركو(1304–1374): باحث وشاعر وفيلسوف إيطالي، وأحد إنسانيي النهضة المبكرين. عُرِفَ أيضًا بـ «أبي الإنسانية».
2- توماسو مارتينيلي (1827–1888): كاردينال كاثوليكي روماني.

شُوهِدَ يومًا على باب كنيسة القديسة كلارا طوال ساعات اليوم. كان الرجل المحترم زيرَ نِساء حقيقي. كانَ يُلقي على أسماعهن عبارات الغزل، ويُغنّي كلمات فاحشة من تأليفه، ويُحدّق بِشهوانية في كواحلهن ورقابهن. ظلّ لسنوات وهو يضايق زوجة الكونت هوغو دو ساد؛ الحسناء الرصينة لورا دي نوفيس[1]. بطبيعة الحال، لم يحظَ قط باهتمام السيدة الرزينة المحتشمة.

ومن المعروف أيضًا أن هذا الرجل الشائن قد دأبَ على كتابة رسائل حميمة إلى أشخاص، كانوا وبصورة واضحة، مُتخَيَّلين، وما هو أسوأ من ذلك، كانوا موتى في تقدير الجميع. أطلقَ السيد بيتراركو على نتاج هذه الممارسة الشيطانية اسم «رسائل حميمة»، و«رسائل الشيخوخة». في رأيي، «الشيخوخة» ملائمة أكثر من «حميمة». الشيخوخة، أو لنقل، دون نيّة للإساءة إلى الحاضرين، «الخرف»: لقد كتبَ رسائل خرفٍ إلى الموتى. جمعَ بيتراركو جميع الرسائل التي كتبها، وتمكن في المحصلة من جمع 128 رسالة للشيخوخة و350 رسالة حميمة. كانَ جامعًا جريئًا، ومتكاسلًا بصورة مزعجة وحمقاء، ومتّقد الذكاء أيضًا. إن عمله المخزي وعبقريته لا نظير لهما، لذلك أجدني في هذه الحالة مضطرًا إلى وضع تسعيرة عالية. فمن سيفتتح المزاد بألف وخمسمئة بيزو؟

رفعَ سعر المزايدة مئة بيزو رجلٌ أصلع بالكامل تقريبًا، لهُ رقبة هزيلة ووجه ممتلئ مربع الشكل مثل صندوق التبرعات. وقد لاحظتُ عندما فتحَ فمه للمناداة بالمبلغ بأنه ليست فيه سنّ واحدة. ولم يرفع أحدٌ آخر يده. بِيعت السنّ القاطعة بألفٍ وستمئة بيزو. الأب لويجي، واقفًا بجانب صفّ مقتنياتي مثلَ الكلب سيربيروس[2]، مرّرَ القطعة الرابعة إليّ، ورفعَ حاجبه ليحثّني على المواصلة.

1- لورا دي نوفيس (1310-1348): كانت زوجة الكونت هوغو دو ساد (سلف عائلة ماركيز دو ساد). ومن المحتمل أن تكون لورا هي مُلهمة فرانشيسكو بيتراركو في قصائده.

2- سيربيروس Cerberus: في الأسطورة الإغريقية هو كلب شرسٌ بثلاثة رؤوس مهمته الوحيدة الوقوف على بوابة الموتى أو العالم السفلي لمنع الأحياء من الدخول ومنع أرواح الموتى من الخروج، ولقد عُرِفَ باسم كلب الجحيم.

القطعة المبالغ بها رقم 4

لسنوات عديدة، كانت هذه القطعة واحدة من أكثر القطع المرغوب بها في سوق المقتنيات الفموية المحمولة. كان صاحبها رجلًا قصير القامة، عريض الردفين، له أنفٌ مستدَقّ وجبهة مثل مؤخرة الخنزير. لم يكن لجنون العظمة حدٌّ في روح هذا الرجل المشين ذي القامة القصيرة. في أكثر من مناسبة قال: «أنا أدرسُ نفسي أكثر من أي موضوع آخر، فأنا الفيزياء والميتافيزيقيا لنفسي». ولكم أن تتخيلوا، كان طوله بالكاد1.47 متر كانَ شعرهُ خفيفًا أشعثَ، لكن أفكاره كانت قوية وخصبة.

كان لدى السيد مونتين[1]، المالك الأصلي لهذه السن، نظرة هادئة صادقة. وكان في وجهه تعبيرٌ ما بين حزنٍ وَمرح. غيرَ أن عدم كفاءته في مزاولة الأنشطة اليومية قد وصل إلى حدّ السخرية: فخطّ اليد في مخطوطاته كان غير مقروء؛ وكانَ عاجزًا عن طيّ الرسالة جيّدًا، ولم يكن يعرف كيف يمتطي حصانًا أو أن يحمل صقرًا ويُطيّره؛ ولم يكن له سُلطة على الكلاب؛ ولا كانَ بمستطاعه التعامل مع الخيول. كان غير نافعٍ بالمرة، على ما يبدو. وعلى الرغم من ذلك، فقد تمتع بصحة جيدة في الفم، ما عدا التهاب اللوزتين المتكرر. كان يُفضّل اللحوم نيئة تقريبًا، بما في ذلك السمك. ولم يكن يحب أي نوعٍ من الفواكه أو الخضروات باستثناء البطيخ. وربما هذا هو السبب في أن السّن في حالة جيدة. علاوة على ذلك، فإن جودة السن فائقة: فهي صقيلة، ونحيلة، ومُدبّبة بعض الشيء. وما سرّ أسنانه الطويلة العمر؟ اعتادَ السيد مونتين أن يقول: «J'ai appris dés l'enfance à les frotter de ma serviette, et le matin, et à l'entrée et aussi de la table.»

1- ميشيل دي مونتين (1533-1592): أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة الفرنسي. رائد المقالة الحديثة في أوروبا. وقد استلهمَ كتاباته في المقام الأول من قصص قرأها وتأثر بها كمثل قصص أوفيد ووقائع تاريخية من قيصر وتاكيتوس، وشذرات من السير الذاتية من بلوتارخ، ونصائح عن كيف تعاش الحياة من سينيكا وسقراط.

وهذا يعني، أنه تعلم منذ الطفولة أن يفركها بمنديلٍ كل صباح، وقبل الطعام وبعده. من سيفتتح باب المزايدة على سنّ مونتين فائقة النظافة؟

تدّفقت موجةٌ من الحماس المُفاجئ بينَ المزايدين. وبِعتُ قطعتي المفضلة بستة آلاف بيزو. اشترتها امرأة عجوز لها وجهٌ من النوع الذي يَسهُل نسيانه، وبُنية يمتاز بها شعوب البحر الأبيض المتوسط. يالهُ من لغزٍ محيّر، لماذا تبدو جميع أجساد نساء البحر الأبيض المتوسط مثل الباذنجان بعد الخمسين!

بانتهاء جولة المزايدة تلك، بدأت أشعرُ كأنني يوحنا بولس الثاني[1]. تخيلتُ نفسي أدخلُ ملعبًا مزدحمًا، وألوّحُ للحشدِ الهائل، بيدٍ مرفوعة عاليًا؛ وكنتُ جديرًا بإثارة حسدِ موسوليني[2]، وحسد مادونا[3]، وستينغ[4]، وبونو[5]، ولينون، وليروي ڤان دايك نفسه. في الأخير، لمحتُ سيدهارتا؛ كانَ جالسًا على مقعدٍ في آخر الكنيسة. تشجعتُ، وباشرتُ في عرض القطعة التالية دونما توقف.

القطعة المبالغ بها رقم 5

واحدة فقط من أسنان السيد روسّو[6] بقيت في الوجود، وأيّما سنّ هي! كانَ لهذا الرجل الجذّاب السيئ السمعة ملامح أرستقراطية، حيثُ الضمير

1- **يوحنا بولس الثاني (1920–2005)**: بابا الكنيسة الكاثوليكية رقم 246 ما بين عامي (1978–2005). كان البابا البولندي الأول في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية.
2- **بينيتو أندريا موسوليني (1883–1945)**: حاكم إيطاليا ما بين عامي (1922–1943). من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطالية وزعمائها.
3- **مادونا لويز كيكون (1958)**: مغنية ومنتجة وناشطة إنسانية أميركية من أصول إيطالية.
4- **ستينغ (1951)**: اسمه الحقيقي جوردان ماثيو سومتر، موسيقي وممثل ومنتج ومغن وكاتب أغان إنكليزي من نورثمبرلاند.
5- **بونو (1961)**: بولو ديفيد هيوسون، ويُعرف باسمه المسرحي بونو، وهو مغن وكاتب أغان إيرلندي.
6- **جان جاك روسو (1712–1778)**: الكاتب والأديب والفيلسوف الفرنسي، يعدّ من أهم كتاب عصر التنوير.

المتيقظ الحذِر يطغى على أدنى أثرٍ من تعابير الوجه. كانت عيناه معبّرتين رشيقتين، ولكن نظرته لم تكن حازمة. وعلى الرغم من ذكائه الذي لا يمكن إنكاره، فإن روح الدعابة لديه كانت طفولية. وكانَ إيمانه شديدًا بفطرة الإنسان الطيبة وجَبْلته على الخير، وفطرته هو بالأخصّ. كان هذا الرجل النبيل يرتدي حشوات الكتف، بما أنه كان يفتقدُ نوعًا ما إلى ذلك الجزء من التركيب البنيوي. ومع ذلك، حظيَ بتعويض عن هذا النقص بِفكٍّ رجولي -واسع مربع مع ثغرةٍ طفيفة في المنتصف- حيث اصطفّت بداخله مجموعة من الأسنان التي ظلّت دائمًا بمنأى عن أنظار الآخرين. كانت أسنانًا بشعة للغاية لدرجة أنه ما أظهرها قط، ولا حتّى في الخفاء. كان مدركًا حق الإدراك للوحشية المروعة لأسنانه. كانَ قارئًا نهمًا لبلوتارخ[1]، الذي تعلّم منه بعض الفضائل وكثيرًا من الرذائل. كتبَ في «حيوات موازية» كانت المومس فلورا لا تترك العشيق يمضي دون التأكد من أن شفتيها حملتا آثار أسنانه. بعد قراءة ذلك، اعتاد السيد جان جاك أن يطلب من عشيقاته أن يعضضنه قبل المغادرة. لكنه لم يكن يردّ بالمثل، لأن أسنانه كما قال كانت: فظيعة وبشعة. ولم يكن يبالغ.

وحقيقة الاحتفاظ بسنٍّ واحدة من أسنان روسّو لا تعود إلى عاداته الصحية، التي كانت عادات رجلٍ محترم، ولكنها تعودُ إلى سوء حظّه. أمضى السيد روسو شطرًا كبيرًا من حياته في المشي. مشي المتسكع عديم النفع كما لو أن رفاهية بني البشر معتمدة على خطواته. ذات يوم خرجَ في نزهة فأطاحَ به كلب. على ما يبدو، اقتربَ منه الكلب بسرعة عالية، وتشابكَ بين ساقيه للحظات؛ وطُوِّح بصاحبنا المشين فَهوَى في الخندق الذي يحدّ الطريق، وفقدَ سِنًّا، وربما هي ذات السن التي لدينا هنا اليوم. إنها شنيعة لدرجة أنها تستحق نُصبًا تذكاريًا. هذه القطعة، على وجه الخصوص، تُشبه سُلّمًا حلزونيًا يؤدي إلى كوّة سقف تَغطّت ذات يوم بالجِير. والآن، من سيفتتح باب المزايدة على سنّ روسو الوحيدة المكسوّة بالجِير هذه؟

1- بلوتارخ (نحو 46-119 ميلادية): يُعرف أيضًا باسم بلوتارخس، وفلوطرخُس. وهو فيلسوفٌ ومؤرخ وقسّ يوناني. من أشهر مؤلفاته «الأخلاق» وهو مجموعة من المقالات والخُطب. وكتاب «حيوات موازية» وهو سلسلة من 48 سيرة ذاتية لرجال من الإغريق والرومان النبلاء.

الناس مروّعون ودنيئون حتى عندما لا يتعمدون أن يكونوا كذلك. أعتقدُ أنهم عرضوا مبالغ أعلى مما سبق فقط برغبة منهم لتفحص السن التّالفة. بعد جولة مزايدة ساخنة، اشترى السنّ رجلٌ ذو لكنة أجنبية، له أسنان كاملة وابتسامة غامضة، مقابل 7500 بيزو.

القطعة المبالغ بها رقم 6

لم يسبق أن كان لدى شخص مثل هذا الفك السفلي البارز لدى السيد تشارلز لامب[1]، الذي عاني من هذا البروز حتى إنه اضطر إلى الإبقاء على شفتيه منفرجتين قليلًا طوال الوقت. فإن لم يفعل ذلك، احتكّ أحد أنيابه بِلسانه وَشفته العليا، مُتسببًا بجُملة من القروح المؤلمة للغاية. وليس من المجازفة التكهن بأنّ كل ما كتبه السيد لامب -وَما أكثرهُ وَما أجودهُ- كانَ نتاج الترتيب المتعرّج لأسنانه. كانَ لديه تأتأة تلميذ مدرسيّ، وكانت كتاباتهُ متلعثمةً بالقدرِ ذاته. كتبَ ذات مرة رسالة مُتلعثمة إلى صديقه وردزورث[2]، قائلًا: «لديّ الآن سنّ حادّة الحافة تَخِزُ لساني؛ في منتصف اللسان، حيثُ أشعرُ بتهييج شرس، وتستمر الحالة، فاللسان يَخِزُ نفسه مثل الأفعى على حافة مبرَد، والسنّ تستثير اللثة في الداخل وتعذّبها، اللسان والسنّ، السن واللسان، في حركة حثيثةٍ دائبة، وأنا مَن عليهِ تسديد الحساب، إلى أن صارَ لساني حارًّا مثل الكبريت».

ثمانمئة بيزو نظير سنّ لامب المتلعثم! من سيفتتح المزايدة؟ من سيعطيني أكثر؟

لكنّ يدًا واحدة لم ترتفع، لذا واصلتُ مع القطعة التالية.

1- تشارلز لامب (1775-1834): كاتب مقالة إنكليزي وشاعر وعالم بالآثار. اشتهرَ بـ«مقالات إيليا» وكتاب الأطفال «حكايات من شكسبير» الذي شارك في تأليفهِ مع شقيقته ماري لامب. صُنِّف على أنه أكثر شخصية محبوبة في الأدب الإنكليزي.

2- وليام وردزورث (1770-1850): شاعر إنكليزي رومانسي، ساهمَ مع الشاعر صموئيل كوليردج بإطلاق العصر الرومانسي في الأدب الإنكليزي.

القطعة المبالغ بها رقم 7

أمامنا هنا سنٌّ كبير الكسالى عديمي النفع؛ السيد غلبرت كيث تشيسترتون[1]. كان يبلغ من الطول 180 سم، ووزنه 110 كغ. كانَ عريضًا مثل البراميل التي يُعتّق فيها النبيذ الرخيص. وكانَ اللحم في قفا عنقه متدلّيًا فوقَ ياقته، وكان خدّاه منفوخين، وعيناه مبطّنتين من العبوس الدائم نوعًا ما. وكان يشرب الحليب بكميات مثيرة للعجب.

قد تكون السن في حال يُرثى لها، ولكنها جذّابة حقًّا. يُعتقَدُ أن الضرر الذي لحقَ بهذه السن ناجمٌ عن ميل السيد تشيسترتون، وباعتراف منه، إلى مضغ الكرات الزجاجية. أقتبسُ من الذاكرة: «نحن على صواب حين نقول إننا نعطي الحجارة مقابل الخبز: ولكن في المتحف الجيولوجي رخامٌ قرمزيٌّ داكن، وقطع من الأحجار باللونين الأزرق والأخضر، تجعلني أتمنى لو كانت أسناني أقوى[2]».

ثمّة قصة عن هذا الرجل النبيل أحبها بصفة خاصة. في يوم من الأيام غادرَ منزله، وهو يمضغ الرخام ربما، عاقدًا العزمَ على الرسم بالطباشير على ورقة بنيّة اللون. دسّ في جيبه ستة ألواح من الطباشير ذات الألوان الزاهية، وتأبّط بضع أوراق بُنّية، وخرجَ -بقبّعة وعصا وسترة- ليصوّر العالم من حوله. وفي لحظة معينة، عندما وصلَ فرس النهر الكسول هذا إلى الريف الإنكليزي الهادئ في الأراضي المنخفضة، اقتربت منه بقرة مدجّنة -وهي بالمناسبة الثانية بين الكائنات الأكثر غباء في مملكة الحيوان، أولها بالطبع الزرافة، وثالثها الكنغر الأسترالي-.

قامَ السيد تشيسترتون ببضع محاولات فاترة لرسم البقرة بالطبشور،

1- غلبرت كيث تشيسترتون (1874-1936): شخصية أدبية شهيرة في القرن العشرين. ناقدٌ وصحفي وفيلسوف إنكليزي، وكاتب للشعر والمقالات والروايات والقصص القصيرة، كما كانَ خطيبًا وواعظًا مسيحيًا. لُقّبَ بأمير المفارقة. وهو مبتكر سلسلة «الأب براون» البوليسية.

2- من مقالة لِـ تشيسترتون بعنوان «اشتهاء الأرض» يروي فيها عن اشتهائه لتناول المواد الصلبة.

إلا أنه سرعان ما لاحظَ أن موهبته تدنّت عندما شرعَ في رسم القائمتين الخلفيتين للكائن ذي القوائم الأربع. بعدَ أن رازَ الأمر لدقيقة، قرر أن يرسم، مُطبِقًا على قطعة الطباشير بين أسنانه؛ قرر أن يرسم الروح في هذا الحيوان اللّبون، بدلًا من منظره الخارجي. رسمَ الروح باللون الأرجواني وأضاف لها إضاءات فضّية. نهاية القصة. من سيفتتح المزايدة؟

رانَ صمتٌ طويل.
كرّرتُ القول: من سيفتتح المزايدة؟
بِيعت سنّ الكسول المستهتر بألفين وخمسمئة بيزو فقط لا غير.

القطعة المبالغ بها رقم 8

بعض الأسنان تُوقِعُ بصاحِبها العذاب كما هو الحال مع هذه السن التي تعودُ ملكيّتها للسيدة ڤيرجينيا وولف[1]. عندما كانت بالكاد تبلغ من العمر ثلاثين عامًا، افترضَ طبيب نفسي نظرية تزعم بأن أمراضها النفسية متأتية من البكتيريا المتراكمة حول جذور أسنانها. وقرر خلع الأسنان الثلاث الأكثر تضرّرًا. لا شيء تغيّر. وعلى امتداد حياتها، خلعت عدة أسنان أخرى، ولم يشكّل ذلك أي فارق. لا شيء على الإطلاق! rien de rien![2]. أنهت السيدة وولف حياتها بنفسها، والعديد من الأسنان الصناعية في فمها. معارفها لم يروا ابتسامتها إلا في جنازتها. ويُقال، إنها عندما كانت مسجّاة في نعشها شبه المفتوح في منتصف غرفة المعيشة، انتشرت ابتسامة على شفتيها فأضاءت ملامحها الحادة والذكية. من سيدفع ثمانية آلاف بيزو لقاء هذه السنّ المضنية بالعذاب؟ هل مِن أحد؟

1- أدالاين ڤيرجينيا وولف (1882-1941): كاتبة إنكليزية من أيقونات الأدب الحديث في القرن العشرين، ومن أوائل مستخدمي طريقة «تيار الوعي» السردية. من أشهر أعمالها «السيدة دالاوي».

2- **Rien de rien**: مثلما وردت في النص الأصلي، عبارة فرنسية بمعنى «لا شيء على الإطلاق». وهي عنوان أغنية شهيرة للمطربة الفرنسية إديث بياف.

عقبَ صمتٍ ثقيل، اشتراها رجلٌ طاعن في السن له وجه عنيد ولكن محترم، مقابل 8,900 بيزو. وبمجرّد أن ناديتُ بالكلمة النهائية «بِيعَ»، وقد طرقتُ على سطح المنبر المائل برأس المطرقة، سمعتُ زعيق طير بين الحضور.

فصاحَ أحدهم من فوره: اسكت يا جاسينتو!

إلا أن الزعيق تكرر. ثمّ لاحظتُ رجلًا قصيرًا في الصف الثالث واقفًا على أحد المقاعد. خلعَ قبعته، ونظرَ إليّ كما لو من مكان قَصيّ وفتحَ فمه ببطء ليتفوّه بزعيقٍ آخر. ثمّ نَدّت عن الجمعِ همهمةٌ تعذّر تمييزها.

انبرى الصوتُ من جديد: اسكت يا جاسينتو، واقعد!

أيّدَ الأمر عدد من الأشخاص. لكن الرجل تجاهلَ محاولات رفاقه المتقاعدين لمنعه، وأنا، بحكمِ السلطة التي أسبغها عليّ المنبر، أمرتهم بأن يدعوه وشأنه. زعقَ مجدّدًا، بصوتٍ أعلى هذه المرة وبثقة أكبر. خَفَتت الهمهمة. ثمّ، وبرشاقةِ راقصة باليه محترفة، رفعَ الرجل ذراعيه إلى مستوى الكتفين، وما زال يزعق، وراحَ يرفرفُ بهما على مَهلٍ. لستُ ممن يبكون بسهولة، ولكني أحسستُ بِغُصّة في الحلْق. كانَ هناك شيء مُحزن وجميل في محاكاة هذا الرجل المسن من أبناء الأبرشية للطيران.

عندما انتهى السيدُ من محاكاة الطيران، قعدَ مرة أخرى على مقعده، واعتمرَ قبّعته. واجهتُ صعوبة في التقاط خيط عرض المبالغات من جديد. شيءٌ ما في ذاك الانقطاع المؤقت الذي أحدثهُ الرجل المسن بطيرانه المستحيل على مقعد كنيسة الرعية قد مسّني في العمق.

القطعة المبالغ بها رقم 9

إنّ قطعتنا ما قبل الأخيرة، سيداتي وسادتي، تنضحُ بجوٍّ من الكآبة الصوفية. السنّ نفسها تمساحيّة، ولكن هَالتها تكاد تكون ملائكية. لاحظوا المنحنى؛ إنه كمثل جناحٍ في ارتقاء. كان صاحبه، السيد خورخي فرانسيسكو إيسيدورو لويس بورخيس[1] رجلاً متوسط القامة. ساقاه القصيرتان النحيلتان

1- خورخي لويس بورخيس (1899-1986): كاتب أرجنتيني، يُعتبر من أبرز كتاب القرن العشرين، إضافة إلى كونه ناقدًا وشاعرًا وله عدة رسائل.

تدعمان جذعه الذي كان متينًا وممشوقًا في آن معًا. كانَ رأسه بحجم ثمرة جوز هند صغيرة، ولهُ رقبة رفيعة مرنة. كانَ مؤمنًا بوحدة الوجود[1]. وكانت عيناه ترفرفان من جانبٍ إلى آخر، لا يمكن لضياء الشمس اختراقهما ولكنهما مُستعدتين لتلقي نور الأفكار الجميلة والجيدة. كان يتحدّث ببطء لكأنما يبحثُ عن الصفات في العتمة. كم ستدفعون؟

لخيبة أملي الكبيرة، دفعوا ألفين وخمسمئة بيزو فقط مقابل سنّ بورخيس الحزين.

القطعة المبالغ بها رقم 10

قطعتنا الأخيرة، أيتها السيّدات والسادة، عبارة عن ضرس. صاحبه ما زال يسير على هذه الأرض بِشُحِّ حيوان أسطوري، وبروحِ شبحٍ سرمديّ طافية. الضرس يخصّ السيّد إنريكي بيلا ماتاس[2]، وكانَ مكتوبًا من قبل أن يكون. دعوني أوضّح لكم الأمر، أن السيد إنريكي بيلا ماتاس المذكور أعلاه قد حلُمَ يومًا بأن أحد أضراسه سقط بينما كانَ نائمًا، وبأن رجلًا اسمه ريمون روسيل[3] دخلَ غرفة النوم، وأيقظه من نومه، وصاحَ في وجهه مثلَ رقيبٍ أول، وأملى عليه مجموعة من النصائح غير المنطقية تتعلق بعاداته الغذائية. وقبلَ خروجه من الباب، التقطَ ريمون روسيل الضرس الملقى بين الملاءات وَدسّهُ في جيبِ سترته.

في الصباح الموالي، تحسّسَ السيد بيلا ماتاس أسنانه ليتحقق فيما إذا كان خسرَ واحدة بالفعل. كانت جميعها موجودة وسليمة. وكونه شخصًا

1- **وحدة الوجود**: الاتحادية أو وحدة الوجود مذهب فلسفي يقول إن الله والطبيعة حقيقة واحدة (Pantheism: الكل هو الله)، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبر أن الله صورة هذا العالم المخلوق. وهي فكرة قديمة أعاد إحياءها بعض المتصوفة مثل محيي الدين بن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين والتلمساني. وقد نادى بوحدة الوجود بعض فلاسفة الغرب مثل سبينوزا وهيغل.

2- **إنريكي بيلا ماتاس (1948)**: روائي إسباني له العديد من المؤلفات الحائزة على جوائز والمترجمة إلى نحو ثلاثين لغة.

3- **ريمون روسيل (1877-1933)**: كاتب مسرحي وشاعرٌ وروائي فرنسي.

يؤمن بالخرافات إلى حدٍّ ما، فقد اعتزمَ حينها كتابة قصة تجنبًا لاحتمالية حدوث هذه الخسارة في الحياة الواقعية.

بعد سبع سنوات، وبينما كانَ يتناول القريدس الملكي مع صديقه سيرجيو بيتول[1] في بلدة بوتريرو في ولاية فيراكروز، تحدّث السيد بيلا ماتاس عن حكايته مع السنّ. على أية حال، في منتصف قصّته، انخلعَ الضرس وسقطَ في طبق القريدس الملكي. طلبَ منه السيد سيرجيو بيتول، وهو رجل حكيم حصيف ومتصوّف، أن يعطيه الضرس، بما أنه كانَ يعرفُ شامانًا[2] في البلدة كانَ قد دفنَ أسنان أعظم الرجال والنساء، وأجرى لها طقوسًا سحرية بيضاء تَضمن لها الأبدية المباركة لها في ذاكرة البشر. سلّمه السيد بيلا ماتاس الضرس بشيء من التردد، ولكنه كانَ واثقًا بالنهاية بأن صديقه سَيفي بوعده.

كان ذلك الشامان من بوتريرو هو عمّي الأغرّ ذائع الصيت، قدموس[3] سانشيز، ابن عمتي الكبرى تيليفاسا سانشيز. عندما توفّي عمي قدموس قبل بضع سنوات، اتّصلَ بي ابنه، ابن عمي، وهو أحمق لا يستحق مزيدًا من الذّكر، ليبلغني بأن أباه تركَ لي شيئًا في وصيّته، وإذا ما أردتُ تحصيل ميراثي عليّ القدوم إلى بوتريرو في الحال. وهكذا ركبتُ الحافلة في نفس الليلة.

إن ما تركهُ له عمي قدموس، مثلما قد تكونون قد خمّنتم الآن، هو مجموعة الأسنان الشائنة التي دفنها تحت شجرة مانجو وارفة في ضواحي

1- **سيرجيو بيتول ديمينيغي (1933–2018)**: كاتب وروائي ومترجم ودبلوماسي مكسيكي.

2- **الشامانية**: دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا، يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلاّ للشامان وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث.

3- إشارة إلى **قدموس الملك الفينيقي**، أول الأبطال اليونانيين وأحد أعظم المحاربين في فترة ما قبل هرقل، في الأساطير الإغريقية هو ابن أجينور ملك صيدا الفينيقي وشقيق أوروبا، التي خطفها الإله زيوس كبير الآلهة اليونانية عندما ظهر لها بشكل أسد له جناحان وطار بها إلى مملكته ومن ثم تزوجها وأطلق اسمها على الأرض التي تقع غرب اليونان تكريمًا لها ومن هنا جاء اسم تلك القارة المعروفة اليوم بقارة أوروبا. أصل الاسم قدموس فينيقي ويُعتقد أن معناه القادم من الشرق.

مدينة بوتريرو. وَفصّلَ لي في ورقة أن الحكومة سوف تُصادِر الأرض في غضون بضعة أشهر، من أجل بناء محطة توليد الكهرباء. لذلك أوكلَ إلي مهمّة التنقيب عن الأسنان المقدّسة، وإيجاد مستقبل أكثر إشراقًا لها. وهنا مربط الفرس، يا أبناء الرعية الأعزاء، وها هنا السن الأخيرة من المجموعة. ضرس السيد المحترم بيلا ماتاس. من سيفتتح المزايدة؟

بصراحة لا أذكر مقدار ما حصلت عليه مقابل الضرس. فقد كنتُ في سكرة الذهول الناجم عن المناخ شِبه السّام، لمزادٍ ناجح – حتى تلك اللحظة. إن البيع في المزاد العلني بالنسبة لي هو نشاط يُفضي بي إلى الإدمان الشديد، تمامًا مثل المقامرة أو بعض المخدرات أو الجنس، أو الكذب بالنسبة إلى الآخرين. عندما كنتُ صغيرًا، كنتُ أخرجُ من المزادات العلنية وبي رغبة في بيع كل شيء: السيارات التي أراها في الشارع، وإشارات المرور، والمباني، والكلاب والناس والحشرات التي عبرت مجال رؤيتي أثناء شرودي. كان أبناء الكنيسة في سُكرٍ ونشوة أيضًا بِفعل الأبخرة المخدِّرة للمزاد. أرادوا المزيد. كانَ جليًا: أرادوا الاستمرار في الشراء. وأنا يعجبني إرضاء الناس، ليسَ بدافعٍ من الخنوع والإفراط في الاحترام، ولكن لأنني ودودٌ وأُراعي مشاعر الغير. وبسبب الحاجة إلى مزيدٍ من القطع، فقررتُ إذ خطرت لي فكرة عبقرية مردّها إلى الحماس الذي استحوذَ عليّ؛ قررتُ أن أطرحَ نفسي في المزاد العلني.

قلتُ: أنا غوستاڤو سانشيز سانشيز. أنا الطريق السريع المنقطع النظير. وأنا أسناني قد تبدو لكم مصفرّة وفي حالة مزرية بعض الشيء، ولكني أؤكد لكم: إن هذه الأسنان كانت ذات يوم ملكًا لمارلين مونرو نفسها، التي ليست بحاجة إلى مقدمات ولا إلى صيغ مبالغة. فإن أردتم هذه الأسنان ينبغي عليكم اصطحابي معكم أيضًا. ولن أقدّم مزيدًا من الشروحات.

من سيفتتح المزايدة؟ سألتُ بنبرة هادئة واثقة، وقد لمحتُ عيني سيدهارتا المُسمَّرتين عليّ.

كررت السؤال على الجمهور المندفع: من سيفتتح المزايدة عليّ وعلى أسناني؟ ارتفعت يدٌ. وحدثَ ما تخيّلته بالضبط. اشتراني سيدهارتا مقابل ألف بيزو.

مجنونٌ ذاك الذي يُطبِقُ أسنانهُ أبدًا
على تلك الكتلة الصخرية الصلدة والراسخة
من الماضي..

الكتاب الثالث

الاستعارات

«نُطلقُ على الشيء تسمية ثابتة إذا كانت في كلّ عالمٍ ممكن تُشيرُ إلى الشيء ذاته. ونحن بالطبع لا نقتضي وجود جميع الأشياء في كل العوالم الممكنة. يُطلقُ الوصف المُحدِّد تسمية ثابتة على كائنٍ محدَّد إذا ما كانَ يصفُ ذلك الكائن أينما حلّ».

• **شاول كريبك**[1]

كتبَ عمي مارسيلّو سانشيز بروست[2] ذات مرة في يوميّاته:

«عندما يكون المرء نائمًا، تُحيطُ به سلسلة الساعات، وتَعاقُب السنين، ونظام الأجرام السماوية. وبدافعٍ من غريزته ينظرُ إلى هذه الأمور عندما يستيقظ، وفي لمحةٍ واحدةٍ يدركُ موضعهُ الخاص على وجه الأرض، ومقدار الوقت الذي انقضى أثناء رُقاده، ولكنّ هذه النُّظم من الممكن أن يختلط ترتيبها، وتنكسر صفوفها وتنحلّ عراها[3]».

1- شاول كريبك (1940): فيلسوف وعالم منطق أميركي.
2- إشارة إلى الروائي الفرنسي مارسيل بروست (1871-1922).
3- المصدر كتاب مارسيل بروست «غرام سوان».

لا أشعر بالارتباك أو كسر أي شيء عندما أصحو من نومي. كمثل جميع الرجال البسطاء، أنا غير قابل للكسر، ولستُ عرضة للاضطراب والبلبلة. في كل يوم أعود إلى عالم اليقظة مع اليقين الجميل والبسيط لانتصابي الصباحيّ المتواضع ولكن الثابت.

وأنا لستُ خارقًا للعادة. على العكس تمامًا. تُشير الدراسات العلمية الحديثة إلى أن أول ما تلاحظه الغالبية العظمى من الرجال عند الاستيقاظ صباحًا هو انتفاخ وصلابة أعضائهم الجنسية. وما مِن لغزٍ في ذلك. خلال الليل، يضخُّ الجسم الدم للعضو الذكري للحفاظ على الحرارة اللازمة من أجل صحته المتكاملة وعمله الطبيعي. ونتيجة لذلك، يستيقظ كثير من الرجال بانتصابٍ قويّ وفخور، وتعمل تلك الحِدّة عملَ المرساة الأولى في العالم أثناء الانتقال من النوم إلى اليقظة. لا تختبر النساء أشياء من هذا القبيل، وغالبًا ما يشعرنَ بالتشتت التام عند الاستيقاظ. إذ ليس لديهن ذلك الشارون[1] الوديع المخلص لإرشادهن من عالمٍ إلى آخر.

هذه الظاهرة في الطبيعة الذكورية التي تُعرف بالمصطلح الشائع باسم «تأثير الخيمة»، هي حدث بيولوجي، وليس نفسيًا بأي حال من الأحوال. ولكن مثل العديد من الظواهر البيولوجية الأخرى من الممكن أن تصبح بسرعة مسألة تتعلّق بالصحة الروحية والعقلية. وإن بقيَ هذا الانتصاب دونَ معالجة وتعيّنَ عليه النزول من تلقاء نفسه -خلال رشفات القهوة الأولى أو تحت الدش- يراكمُ الرجل أخلاطًا خبيثة مؤذية تغمرهُ بالغضب والاستياء طوال يومه. فيصير حذرًا متحفّظًا، قليل الكلام، مُضمرًا العِداء، وقد يبدأ أيضًا بإيواء أفكار غدّارة تجاه أبناء جلدته، بمن فيهم أفراد عائلته وزملائه. على أية حال، إن أظهر الشخص النائم بجانبه تعاطفًا، وحرّرَ العضو من تراكم سوائل الجسم، سيبقى الرجلُ هادئًا وديعًا منضبطَ النفس، وبوسع المرء أن يقول حتى إنه محبٌّ للخير سهل المراس. نهاية التفسير العلميّ.

1- الشارون أو الخارون: **Charon** في الميثولوجيا الإغريقية هو مرشد الأرواح، المراكبيّ الشيخ، من الهاوية، الذي ينقل أرواح الأموات إلى العالم الآخرعبر نهر ستيكس مقابل مبلغ من المال.

كان عمي مارسيلّو سانشيز بروست، الذي لديه نظريات عدة حول أشياء كثيرة، يقول دومًا إن على الرجل الزواج من امرأة لديها موقف متفهم لهذه الحالة الطبيعية عند الرجال، وكان يقول: «عليكَ أن تجدَ امرأة تُخفّف من الغضب الذي يتراكم خلال ساعات الأرق الطويلة عند الرجال الذين لديهم حساسية تجاه مرونة الزمن».

أيًا كانَ معنى ذلك، كانَ يضيف بالقول إنه من أجل هذا السبب تزوّجَ عمتي نادية، وظلّ مخلصًا لها إلى أن فرّقهما الموت (ماتت المرأة المسكينة بذبحة صدرية مثلَ أبينا المؤسس بينيتو خواريز[1]). لا بدّ أن العمّة نادية كانت تُخفي مواهبَ عظيمة، فعلى الرغم من أنها ربما كانت تلبس ثيابًا مثلَ معلمة في دار الأيتام، فإنها كانت بلا شك فنانة موهوبة في عهر الصباح الباكر.

وأنا على النقيض منه، لم يُحالفني الحظ بالمرّة في هذا الجانب، ربما لأن حظ الرجل المحظوظ، كمثل حالتي، يُوزَّع بحيثُ لا يصل إلى أركان التجربة الإنسانية الأكثر سرية وغموضًا. مثل نظرية مُنحنى الجرس[2]. أدّت فلاكا واجبها نحوي إلى أن حبِلتْ؛ يعني لمدّة أسبوعين تقريبًا. وبعد ذلك، لا شيء! كانت على الدوام مفتقرة إلى الكرم في تلبية احتياجات الآخرين، وخاصة احتياجاتي. إلا أني لم أجد أيضًا عزاء الصباح الباكر مع النساء الأخريات في حياتي. أنجليكا، البعيدة كل البعد عن القبح، كانت تستيقظ ولِفمها رائحة الدجاج، فكنتُ أنا من يرفض الاتصال الجسدي. ومن ناحية أخرى، كانَ لدى إيريكا شَبهٌ غريب بالرئيس السابق فيليبي كالديرون[3] وهي نائمة، أعتقد لأن وجهها كان يبدو أثناء النوم منتفخًا قليلًا، وبالأخص الشفتان، والأنف، والحاجبان. وبقدر ما أكون راغبًا بتبديد أخلاطي

1- **بينيتو بابلو خواريز (1804–1872)**: رئيس المكسيك بين عامي (1858–1872)، وهو أول رئيس مكسيكي لم تكن لديه خلفية عسكرية، وأول الرؤساء من الهنود الحمر على الإطلاق (من هنود الزابوتيك؛ سكان المكسيك الأصليين).

2- **نظرية منحنى الجرس الرياضية**: تستخدم لوصف رسم بياني لتوزيع الاحتمال الطبيعي، حيث يتركز المنحنى في المركز وينخفض على كلا الجانبين.

3- **فيليبي كالديرون (1962)**: سياسي مكسيكي شغل منصب الرئيس السادس والخمسين للمكسيك (2006–2012).

المحصورة فيها، بمجرّد أن أراها هناك، منتفخة ومشوّهة من النوم، تمامًا مثل رئيس الأعوام المظلمة في المكسيك، بقدر ما يستبدّ بي الهلع فإذا بي أنسلّ من سريري بصمت، وأتسحّبُ بعيدًا على رؤوس أصابعي لأعدّ لنفسي كوبًا من القهوة الثقيلة. وأمّا إستير، فقد كانت عصبية سيئة المزاج في الأصباح. لم أكن أجرؤ على معانقتها خشية أن تنهالَ عليّ بالسلسلة التي كانت تبقيها في متناول يدها في درجها. لذلك، كنتُ أتركُ لها المبادرة بالخطوة الأولى، التي عادة ما تكون عبارة عن إعطائي أمرًا –والسلسلة في يدها– من مقاطع متعددة يصعبُ تفسيرها، مثل: على ركبتيك، أيها الطريق السريع، وأعطني لسانك. أو ربما: أيها الطريق السريع، إنه الوقت الملائم، غص بي أيها الأخرق. أو ببساطة، أشبعني أيها الطريق السريع. ولكن، بما أن إستير، ولله الحمد، نادرًا ما اتّخذت الخطوة الأولى، فقد تعلّمتُ أن أُسلِمَ أمري إلى أقداري. لدي موهبة فريدة بالتسليم، مثل جميع الرجال الكاثوليكيين.

في صباح ذلك اليوم، صباح أسريَ القصير، كانَ أول ما لاحظته هو الانتصاب، الذي ردّني حضوره المُرافِق «حامل الدرع» الوفيّ إلى وعيي بالعالم يوميًّا. حاولتُ تجاهله، وعدتُ للنوم مرة أخرى. لم أعرف كم مرّ من وقت؛ لحظات، وربما دقائق. عندما بدأت أستجمع حواسّي من جديد، كان أول شيء لاحظته هو رائحة نفّاذة، أشبه برائحة الخشب المطليّ حديثًا، وشعرتُ من فوري بحرقة لا تُحتَمل في جسر أنفي. كنتُ مستلقيًا على سطح خشبيٍّ صلب، ولكني كنتُ أتعرق عرقًا غزيرًا من صِدغيّ. وكانَ رأسي يخفق بقوة وبسرعة، مثل قلب طائر صغير. ثمّ أحسستُ فجأة بتورّمٍ غريبٍ في لساني، وبطعمِ الدّم المعدني قليلًا في حلقي. وفي ذلك الصمت الذي ضاعفَ من حدّة الخفقان المضطرب في صدري، سمعتُ خرخرة خافتة، وربما شخيرًا مكتومًا، أنّات نوعًا ما. وافترضتُ أنه لا بدّ أني كنتُ في غرفة ينامُ فيها أناس آخرون. فضّلتُ ألا أفتح عينيّ، مُعتقدًا أنني ربما وضِعتُ في دار للمُسنّين أو أُودِعتُ سجنًا، وحاولتُ الرجوع إلى النوم، دون أن أُفلِح تمامًا في ذلك.

الشيء الوحيد الذي أذكرهُ بعد المزاد العلني في الكنيسة هو الخروج إلى الشارع مُمسِكًا بيد سيدهارتا. خطرَ في بالي آنئذٍ المرة الأخيرة التي أمسكتُ فيها يده، واحتويتها في قبضتي. لكنني سرعان ما استبعدتُ ذلك

الخاطر، لأنه جعلني راغبًا بمعانقته، وشعرتُ أنه لا يريد أن أعانقه. مشينا عبر الساحة، يدًا بيد، نحو سيارة كانت بانتظارنا على الناصية، في حين كنتُ أشرح لسيدهارتا كيفَ أفلحت معي قصة ذات الرداء الأحمر المعكوسة والمضحكة. نظرَ سيدهارتا إلى الأمام مباشرة وتجاهلني، بالطريقة التي يتجاهل بها الآباء أبناءهم عندما يحاولون شرحَ أشياء مُعقدة لهم. وكانَ ذاك كلّ ما تذكرته، أي شيء سواه كان محض امّحاء أبيض.

وبينما كنتُ ما أزال مُغمضَ العينين مستسلمًا لمزيدٍ من النعاس، مررتُ طرف لساني ببطء على سقف حلقي. في تلكَ اللحظة تناثرتُ إلى شظايا. عندما جربتُ تحريكَ لساني على امتداد هلال أسناني المقدّسة البهيّة والمعظّمة مثلَ أعمدة ميدان القدّيس بطرس[1] من تصميم برنيني، وجدتُ فجوة كبيرة فارغة. لا شيء. ولا حتى سنًّا واحدة. آه، يا مارلين! رفعتُ يدي إلى فمي وفتحتُ عينيّ. جلستُ، وتبيّنَ لي أنني كنتُ مستلقيًا على مقعد خشبيّ. تحسستُ بأناملي شفتيّ، لساني، سقف حلقي، ولثّتي الخاوية. لم أجد شيئًا، ولا حتى سنًّا واحدة. ما الذي كانَ سيفعله المهندس المعماري العظيم لساحة القديس بطرس إذا جاء إلى الفاتيكان يومًا، ولاحظَ أن الأعمدة الدوريسية اليونانية المهيبة، التي تشكل نصف دائرة حولَ صحن الساحة، والتي تُشيرُ إلى الارتفاعات الأكثر بهاء للنصب التذكارية بالنسبة للكاثوليكية، غير موجودة بكل بساطة؟

أجَلتُ النظرَ من حولي، مُتفحّصًا المكان حيثُ كنتُ راقدًا، واكتشفتُ جحيمًا أشدّ ضراوة من الجحيم الذي تموضعَ في فمي. كان ثمّة مهرج ذو أبعاد خارقة، معروضًا على الشاشة، وكانَ يتأملني بتعبير وديعٍ غامض. هيمنَ الخوف عليّ، ومع أن الشيء الأكثر منطقية كان النهوض من على المقعد، والركض باتجاه باب الغرفة الصغيرة الموارب، فإن حياتي منعني. كما أن انتصابي العنيد وغير القابل للتفسير -نظرًا للظروف- جعلَ من النهوض

1- ميدان القدّيس بطرس: الساحة الكائنة أمام كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان، وتُعدّ من أهم معالم السياحة في روما. تمتاز هذه الساحة، من تصميم جان لورينزو برنيني، بشكلها البيضاوي، وتشتمل في جوانبها على جدار مؤلف من رواق طويل مقسم إلى أربعة صفوف من الأعمدة الإغريقية.

على قدميّ أمرًا مستحيلًا. دقّقتُ النظرَ في الغرفة. من الشاشات على الجدران الأربعة، كانَ هناكَ أربعة مهرجين جامودين[1] (مُتَخشّبين) يحدّقون بي. بِتُّ متيقّنًا من خسارتي، أُحرِقَت جميع أوراقي. وكانَ الخيار الآخر، أني اختُطِفتُ ربّما وتعرضتُ للتعذيب، لهوَ أكثر خطورة، في بلد تساوي فيه حياة الإنسان أقلّ من ثمن تذكرة سفرٍ من مكسيكو سيتي إلى أكابولكو، على خط «استريلا دي أورو» البائس!

تجلّت قبالتي مباشرة صورة المهرج المكبّرة، بوجهه المطليّ بالأبيض، والابتسامة المرسومة بالأسود حولَ فمه، وعلى رأسهِ الأصلع قُبعة صغيرة تُحاكي قبّعة تشارلي تشابلن. أدرتُ رأسي إلى اليمين. أظهرتِ الصورة بنفس النِّسب المبالغ بها مهرّجًا يرتدي بذلة ذات ألوانٍ زاهية، وكان الجزء الأكبر من وجهه مطليًّا بالأحمر القاني، وقد نبتت من جوانب رأسه الكبير الغليظ شُجيرات من الشَّعر الأصفر. وكان المهرج على يساري مرتديًا بدلة بيضاء، مع وشاحٍ من ريش البطّ الأصفر؛ وكان وجهه مصبوغًا باللون الورديّ، ومن فوق حاجبيه الطبيعيين كانت مجموعة من الألوان غير الطبيعية، اعتلت جبهته مثلَ دَرجٍ مختلف الألوان وصولًا إلى رأسه الأقرع في معظمه. من نافلة القول أنهم ثلاثتهم كان لديهم الصفة ذاتها؛ ألا وهي الأنف الكروي البغيض. اكتفيتُ بإلقاء نظرة خاطفة على المهرج من خلفي، بيد أني تمكنتُ من رؤية حذاء أسود ذي نعلٍ عريض، ووجه مدهونٍ باللونين الأحمر والأسود. لمحتهُ من طرف عيني، بدا لي الأكثر شرًّا من بين الأربعة، لهذا أدرتُ وجهي ناحية المهرج قبالتي؛ المهرج صاحب الوجه الأبيض والقبعة الصغيرة. ومن ثمّ، ما أثار ارتباكي أن المهرج رمَش!

انتظرتُ بضع ثوانٍ، متشبّثًا بحافة المقعد، كيما أرى إن كانَ سيعيد هذه الحركة، أو إن كانَ الأمر مجرد أنني كنتُ مرتبكًا لدرجة الهلوسة. إلا أن المهرج لم يرمش مرة أخرى فحسب، ولكن وفجأة، ودونما أن يفتح فمه، ارتفعَ صوتٌ من فوق رأسي:

1- الجامود: Catatonia حالة عصبية نفسية تؤثر في السلوك والوظيفة الحركية، من أعراضها الذهول والتخشب والصُّمات.

– ألا تعتقد أن كل الأشياء في غاية الجمال يا فانشيول[1]؟

لم أجِب، فقد كانَ من الواضح أنه لا يقصدني. أيها الطريق السريع، أنت أبله، قلتُ لنفسي. تكلمتُ بصوت مرتفع، وتمكنتُ –وإن على نحو ضعيف– من التكرار: أحمق!

لم أتعرّف إلى صوتي. فمن دون إطار أسناني الصلب، كانت الكلمات التي خرجت من فمي نفخة باهتة، صوت رجل عجوز خفيض. ثم انبعثَ ذلك الصوت من الأعلى مجددًا – بطيئًا، هادئًا متهكمًا. محاكيًا ما قلتهُ من قبل:

– أ – بـ – له.

سألتُ مذعورًا: من أنت؟ أين أنت؟

– دع عنك هذا يا فانشيول!

– عفوًا؟

– كفّ عن التحامُق يا فانشيول!

– إنك تخلطُ بيني وبين شخصٍ آخر. أنا غوستاڤو سانشيز سانشيز، الطريق السريع، في خدمتك.

– دعك من ذلك أيها الوغد. قل لي فقط أين أخفيت كريم مزيل المكياج؟

أجبتُ بالقول: لا أدري عَمَّ تتحدث.

حينها فقط لاحظتُ أن الصوت، كانَ في الواقع، آتيًا من مكبر صوتٍ في السقف، وكانت هناك ثلاثة مكبرات صوت أخرى، واحد في كلّ زاوية من زوايا الغرفة.

1- فانشيول: اسم المهرج في قصيدة شارل بودلير «موتٌ بطولي/ A Heroic Death»، كانَ المهرج المفضل لدى البلاط، واشتهر بأدواره الصامتة، وقد اعتُبِر صديقًا للأمير. يضبطُ الملك المهرج في مؤامرة ضد الأمير، فيقبض عليه ويحكم عليه بالإعدام لتورطه في المؤامرة. يُعطى المهرج فرصة لتأدية دورٍ أمام الأمير ضمن مجموعة من المتآمرين الآخرين. وفي ليلة العرض يؤدي فانشيول أقوى دورٍ لَعِبهُ في حياته، وفي لحظة تألقه المسرحي، وقد نسي الجميع أنه محكوم، يُقتل في منتصف العرض.

– الكريم يا فانشيول اللعين! وجهي يتشقق، وأريدُ إزالة مكياجي.

– لا أستخدم الكريمات. أنا لستُ امرأة ولا مُهرّجًا، وأنا لا أضع المساحيق.

– فإذن، أنت لست مهرّجا؟ يا فانشيول اللعين الأدرَد المخادع.

– اسمي غوستاڤو سانشيز سانشيز، والناس يلقبونني بالطريق السريع، بدافعٍ من التحبب والمودة.

– دعكَ من هذا الكلام.

– وأنا أفضل بائع بالمزاد في العالم.

– آه حقًّا؟ وبمَ أتيت لنا لبيعه في المزاد؟

التزمتُ الصمت، غيرَ عارفٍ بمَ أردّ. واصلَ المهرج حديثه. وسألني إذا ما كنتُ أعلم أمثولة اللؤلؤة، ودونَ انتظار إجابة مني، أخذَ يشرح لي بالتفصيل. خاطبني كما لو كان يخاطبُ طفلًا صغيرًا أو أجنبيًّا، وهو يلفظُ الكلمات لفظًا صحيحًا مترويًّا.

يقولُ المسيح: «بالإمكان مقارنة مملكة الربّ بشخصٍ يمتلكُ كنزًا مخبوءًا في حقله، ولكنهُ لا يعلم به. وعندما وافاه الأجل تركَ الكنز لابنه. ولم يكن الابن أيضًا على علمٍ بأمر الكنز، فما كانَ منه إلا أن استولى على الحقل وباعه. حرثَ المشتري الأرض، فاكتشفَ الكنز، وراحَ يُقرِضُ المال بالفائدة لمن شاء». هل فهمتَ المغزى يا فانشيول؟

– أجل، بالطبع، لقد ذهبتُ إلى مدرسة الأحد.

– إذن ما معنى القصة؟

– هذا يعني أنه ينبغي عليكَ التحقق ممّا في حقل والدك قبل بيعه.

– أبله!

رمشَ المهرج، وتثاءب تثاؤبًا طويلًا دونما حَرج. ثمّ قال: «أنت أكثر شخص غبي ممل رأيته في حياتي يا فانشيول!». وأغمض عينيه سريعًا، وبدا لي من صوتِ تَنفّسِهِ أنه خرّ في نومٍ عميق.

كنتُ واثقًا من أني ذهبتُ إلى الجحيم. أثناء اجتماعات الولائم العائلية المطوّلة التي كانَ عليّ تحمّلها أثناء طفولتي، كان ابن عمي خوان بابلو

سانشيز سارتر، الذي كان ينتعل شبشبًا بلاستيكيًا أبيض اللون وسرعان ما تظهر عليه علامات السُّكْر، كان لا بدّ أن يقول لنا -أوان تقديم الحلويات- إننا الجحيم بذاته. كانَ يصرخُ فينا؛ يلعننا، وفي بعض الأحيان كانَ يرمي الأغراض أو بقايا الطعام المتناثرة على مفرش المائدة، وبالأخص حبّات الأرز الطرية، ومن ثمّ يغادر، صافعًا الباب من خلفه صفعةً مدوّية. وكنّا لا نراه إلى أن يحين التجمّع العائلي المقبل، وحينها كان يتكرر الموقف عينه، مع شيء من الاختلافات. واستمرّ الحال على هذا المنوال، مرة كلّ شهرين، إلى أن كان يوم انتحرَ فيه خوان بابلو أثناء ممارسة الرياضة على الدراجة الثابتة، لدى تناولِهِ جرعة قوية من الأمفيتامين أُصيبَ على إثرها بنوبة قلبية. نهاية الذكرى العائلية.

ولكن قد يكون ثمّة مغزى في نظرية بابلو المسكين. ومذّاك، صرتُ أعتقدُ على الدوام أن الجحيم هو الأشخاص الذين قد تَكُونهم ذات يوم. كانوا الأشخاص الأكثر ترهيبًا لخوان بابلو هم أقاربه الأكثر خِسّة وحقارة - الأعمام والأخوال الطالحون، العمات والخالات اللواتي تفوح منهن روائح مستحضرات التجميل، وأبناء عمومته وخُؤولته التافهون. بعض الناس يخشونَ أعداءهم ورؤساءهم، أو المعاتيه الذين يجوبون الشوارع ويتحدثون مع أنفسهم، أو المجنونات اللاتي يُنظّفن جلودهن في الأماكن العامّة. والبعض لا يحتمل حضور الفقراء، ومبتوري الأطراف، والمشردين. بالنسبة لي لا شيء يُثير تشاؤمي أكثر من رؤية إنسان يرتدي زيّ مهرج، ربّما مردّ ذلك إلى خوفي الدائم من أن يُنظر إليّ على أنني أحدهم. وها أنا كنتُ هناك، بلا أسنان، مستلقيًا على مقعد قبالة إسقاطات مُسجلة على شريط فيديو لمهرجين هائلي الحجم، غافيًا -أو ربما مُحبَطًا حدَّ التخشّب- وأبدو، خطأً، واحدًا منهم.

شعرت برغبة ملحّة بالهروب، الانتصاب الذي أوقفني في البداية ما عادَ عائقًا. ولكني أدركتُ على الفور أنه لا جدوى من الهرب. إلى أينَ أذهب؟ وما الفائدة المرجوّة؟ وعِوضًا عن ذلك، نهضتُ ومشيتُ في أرجاء الغرفة. لم تكن مساحتها تزيد عن عشرين خطوة بالعرض وعشرين بالطول. وكانت خاوية إلا من أربع شاشات كبيرة عُرِضَ عليها المهرجون النائمون.

بالقرب من الباب الذي تُرِكَ موارَبًا، ثمّة نص قصير على الحائط يقول: «أغو روندينون[1]. إلى أينَ نذهب من هنا؟ أربعة أجهزة فيديو، صوت، حبرٌ على الجدار، خشب، وضوء نيون أصفر». دفعتُ الباب فانفتحَ على مصراعيه، وألقيتُ نظرةً خاطفة. كانت الغرفة مُفضية إلى غرفة أخرى، تفوقها حجمًا، وكانت إنارتها جيدة. اجتزتُ العتبة، وتمشيتُ في تلك المساحة الأكبر. كانت هناك مجموعة من الأشياء الموضوعة في أماكن غريبة وفي الزوايا: لوحة إعلانات تصوّر حصانًا داخل غرفة فندقية، كلب (لعبة) محشوٌّ نائم، عدة بدلات فخمة على شكل فئران وجرذان، سَاق صناعيّة مُشعرة، شجرة «باوباب» بالغة الصِّغر، ومجموعة من الصفّارات، نوتة موسيقية على حامل ثلاثي الأرجل، ونافذة غير حقيقية مكوّنة فقط من الضوء المسلّط على الجدار من مصابيح الهالوجين. وقد وجدتُ آخر هذه الأشياء جميلًا على نحو خاص، وفكرتُ أنها قد تستحق عناء التجميع، أو ربما نقل الفكرة إلى مستودعي، الذي لم يكن فيه العديد من النوافذ كما ينبغي أن يكون في مكان لائق.

كنتُ أحاول تقدير كم يبلغ وزن المصابيح عندما سمعتُ الصوت البارد اللامبالي ذاته في الغرفة الأخرى. قَفَلتُ عائدًا، على مهلي.

– أمازلتَ هنا يا فانشيول؟

– أين يفترض بي أن أذهب؟ قلتُ ذلك وأنا أُعاودُ القعود على مقعدي.

– لقد قلتَ إنك ستجلِب سيارة أمي «الفولكس فاجن» من حجز السيارات، ولا تتظاهر بأنك لم تفعل ذلك. بسببك أنت قَطَروا السيارة، يا فانشيول.

– لم أقل إنني سأفعل أي شيء! من أنت؟ أين أنت؟

– أنا هنا، على يمينك.

الآن فهمت. مع أن الصوت كانَ نفسه، إلا أن مَبعثهُ هذه المرة كان على ما

1- **أوغو روندينون (1964)**: فنان سويسري مقيم في نيويورك. يعمل في وسائل الإعلام الفنية المختلفة، بما في ذلك الرسم والتصوير الفوتوغرافي والفيديو والتركيب والنحت.

يبدو من جهة المهرّج صاحب البدلة ذات الألوان الزاهية. إن كانَ المقصود منه أن يكون مقنِعًا، فقد كانَ إنتاجًا رديئًا بحقّ. اتّهمني المهرج الثاني بأنني ركنتُ سيارة فولكس فاجن بيضاء اللون في الحيز الذي كانَ مخصصًا على ما يبدو للسائقين ذوي الاحتياجات الخاصة، وبالإضافة إلى إظهار عدم مراعاتي لذوي الاحتياجات الخاصة، فإن ما قمتُ به بحسبِ زعمه تصرف متطرّف وعدواني للغاية تجاهه وتجاه والدته. ومضى شارحًا أن عدم مراعاة مشاعر الآخرين بشكل عام، والعدوانية السلبية المفرطة، من السّمات المميزة للاكتئاب. فكان من الجليّ إذن أنني مكتئب للغاية. واقترحَ علي بكل احترام الذهاب إلى طبيب نفسيّ أو محلل نفسيّ، ونصحني أيضًا بالنوم ثماني ساعات على الأقل يوميًّا، والتوقف عن شرب الكحول، وبالتأكيد الإكثار من ممارسة التمارين الرياضية، لأن ذلك يؤدي إلى إنتاج كميات كبيرة من السيروتونين في المخيخ وما تحت المِهاد، فقاطعتهُ بالقول:

– لماذا لا تخرج وتُحضِر الفولكس فاجن؟ ما الذي تفعله مستلقيًا هناك؟

– أنا؟ أنا هنا لأختلق بعض الأفكار فقط.

– ما الذي تعنيه بخلق الأفكار؟ أنت لا تخلقُ أفكارًا.

– ربما أنت لا تخلق أفكارًا، ولكن أنا بلى.

– حقًّا؟ مثل ماذا؟

– حسن، الآن، على سبيل المثال، أفكّرُ بأن أفراس النهر حيوانات جديرة بالازدراء حقًّا، علاوة على كونها خطيرة، وبأنه تنبغي إبادتها.

– يا لها من فكرة عميقة، قلتُ بسخرية قسرية. وماذا أيضًا؟

– وفكرتُ أيضًا بأن السياسة الإيطالية سخيفة؛ ويمكن أن تتحول الكلاب الضالة إلى عنيفة، على الرغم من كونها كائنات ودودة حَسنة المعشر ومستقلّة بشدة؛ وبأن الأزواج المُسيئين ليسوا نادرين إطلاقًا، وبأن الناس خدومون مِفضالون بسبب الخوف؛ وبأن بالكثير من معلمي المدارس الابتدائية قُساة؛ وبأن الأمير الصغير هو كتاب عن الفن الهابط للأشخاص في الأربعينات من العمر؛ وبأنّه لا معنى لوجود الكثير من القدّيسين في التقويم الغريغوري.

آه، قلتُ، أو ربّما لم أقل شيئًا. لربّما تنهدتُ فقط. أو تنفّستُ فحسب.

– وفكرتُ، على سبيل المثال، بأن حقيقة نسيانك لجلبِ السيارة لها علاقة بحكاية «بيكون[1]» الرمزية عن أسنان الحصان[2].

– حكاية أخرى؟

– اسكت! وانتبه:

«في سنة الربّ الـ1432، نشبَ خلافٌ عنيف بين الإخوة في الدين حولَ عدد الأسنان في فم الحصان. على امتداد ثلاثة عشر يومًا ظلّ الخلاف مُحتدِمًا دون توقف. أُحضِرت جميع الكتب والحوليّات القديمة، وتجلّت سِعة الاطلاع الثقيلة، المدهشة والمضنية في آن معًا، كما لم يُسمع بها من قبل في المنطقة. في مُستهلّ اليوم الرابع عشر طلبَ راهبٌ شابٌ حَسن السلوك الإذنَ من رؤسائه المتعلمين بأن يُدلي بِدلوِهِ، وعلى الفور، ولِفرط دهشة المتنازعين، الذين كدّر لهم حكمتهم العميقة أيّما تكدير، ناشدهم بفضّ النزاع بطريقة فظّة وغير معهودة، وذلك بالنّظر في فَمِ حصان مفتوح، والعثور على إجابة لتساؤلاتهم هناك! مَقاله هذا مسَّ كَرامتهم، فَتميّزوا غَضبًا، وانخرطوا جميعًا في ضجيج عارم، ثمّ انقضّوا عليه وأوسعوه ضربًا، دونما رحمة أو شفقة، وألقوه خارجًا في الحال. لأنه من المؤكد، على حدّ زعمهم، أن الشيطان قد أغوى هذا المترهبِن الغرّ الجريء لكي يُصرّح بطرقٍ غير مقدّسة وغير معهودة من أجل اقتفاء الحقيقة، خلافًا لِجميع تعاليم الآباء. وبعد عدّة أيّام من الفتنة الخطرة، حطّت حمامة السلام بين المجتمعين، وأعلنوا بكلمة رجلٍ واحد بأن المعضلة ستظلّ لغزًا أبدًا، وذلك

1- فرانسيس بيكون (1561–1626): فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي. رائد الفلسفة الجديدة القائمة على الملاحظة والتجريب (الاستقرائية) بدلًا من الطريقة الأرسطية القديمة (الاستنباطية)، ويشار إلى طريقة ابن خلدون الاستقرائية بوصفها أيضًا ثورة معرفية. من أشهر أقوال بيكون: «لو بدأ الإنسان من المؤكدات انتهى إلى الشك، ولكنه لو اكتفى بالبدء في الشك، لانتهى إلى المؤكدات».

2- أمثولة أسنان الحصان: ينسب البعض هذه الأمثولة إلى روجر بيكون (1214–1294) وهو فيلسوف إنكليزي وراهب فرانسيسكان، كانَ قد أكد أهمية الطريقة التجريبية.

بسبب النقص الحادّ في الأدلة التاريخية واللاهوتية، ولذلك أمروا بالتخلّي عن الأمر».

قلتُ: لم أفهم كلمة واحدة من الحكاية.

– ألا تعتقدُ أنه مشكوكٌ في أمرها؟

– بأية صورة؟

– بالصورة التي أنت عليها أيها العجوز الأدرد الخسيس يا من لا يفهم وينسى الناس والأشياء.

قد تكون محقًّا، قلتُ، وضريحُ الذنب يحفر لنفسه مسافة أوسع في مكان ما في صدري.

– وهل أنت ذاهبٌ الآن لإحضار سيارتي أيها الفانشيول الخامل التافه الضئيل القدّ ذو الساقين النحيلتين الطويلتين؟

– حسنٌ، ربما.

لم يَفه المهرج بشيء وطالَ صمتهُ لفترة كافية لأفهم أن حديثنا بلغَ نهايته. لربما كان محقًّا. ربما ينبغي عليّ الذهاب وابتياع دِهان إزالة المكياج، وإخراج السيارة من الحجز. على كل حال، لم يكن عندي شيء آخر أفعله. ولكن يا لها من فكرة خرقاء. كان المهرجون مجرد أشرطة تسجيل. وكان من الواضح أن الصوت آتٍ من مكبّر صوت في مكان آخر. قررتُ أن أصبر وأنتظر حتى انبعاث الصوت من جديد.

كنتُ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري حينما شعرتُ بالرعب للمرة الأولى من وجود مهرج. كنتُ في محطة مترو بالديراس بصحبة صديقي إلّ بيرو. كان الوقتُ قد تجاوز الحادية عشرة ليلًا، وكنا عائدين من لعب الدومينو على سطح بيت أحد الأصدقاء وسطَ مدينة مكسيكو سيتي. لم يكن في المحطة أحد، غيري أنا وإلّ بيرو، بانتظار القطار الأخير. وفي لحظة معينة، تناهى إلى سمعنا صوتٌ كما النخير العميق، تلته على الفور نفخة. ومرة أخرى، نخير، نفخة، ثم نخير. نظرنا من حولنا، لا

شيء! ما من مخلوق في المحطة. ذهبَ إلّ بيرو ونظرَ أعلى الدرج الذي يربط المنصات مع الردهة. وقفَ هناك لحظة، متجمّدًا من الدهشة. ثمّ أومأ إليّ ووضعَ إصبعه على شفتيه مشيرًا إليّ بأن ألتزمَ الصمت. مشيتُ نحوه بحذر. على الدرجة العليا كان ثمّة مهرج يجلس القرفصاء وقد أرخى سرواله ليقضي حاجته. حاولتُ كبت الضحكة التي انبجست من رئتيَّ مثل ارتداد عصبيّ، لكني أخفقتُ في احتوائها في الوقت المناسب. انبعثَ مني نوعٌ من العطاس: ضحكة عبرت كاتم صوت ضبط النفس. رفعَ المهرج رأسه ونظرَ في عينيّ، وبدا لي مثلَ حيوانٍ أعزل يحدّقُ مباشرة في مُفترِسٍ مُحتمَل، وسرعان ما يدركُ أن المُطارِد هو فريسته في الواقع. رفعَ سرواله، واندفعَ صوبنا. وركضنا مُسرعين، كما لم نفعل من قبل.

مرعوبين ومرتبكين، اقتفينا طريقنا عبرَ متاهة الممرات في محطة بالديراس، باحثين عن مخرجٍ مفتوح. عند زاوية أحد الممرات، أدركني المهرّج وأمسكَ بي. سقطتُ أرضًا. وارتمى عليّ، مثلما يرتمي رجلٌ على امرأة تقاومه. ثبّتني المهرج من ساقيّ، وأسقطَ رأسهُ ودفنهُ في بطني، وأنفه الكرويّ ينغرزُ في سرّتي. دفنَ وجهه المطلوس بمساحيق التجميل في قميصي الأبيض، وفوجئتُ أنه انخرطَ بالبكاء، ولم أعرف قط، أهوَ من الخجل أم إنّه حزنٌ طبيعي؟

بعد بضع لحظات، وقد التقطتُ أنفاسي، تمكنتُ من الانزلاق من تحت جسده المنهك. من ثمّ تابعتُ المسير أنا وإلّ بيرو، ببطء وصمتٍ هذه المرة، إلى أن عثرنا على مَخرجٍ مفتوح أخيرًا. نهاية الذكرى.

ظللنا زمنًا طويلًا بعدذاك نتندّر بذلك اليوم ونؤلّفُ جميع أنواع النُكات عنه، ونروي على معارفنا نُسخًا مبالغًا بها من القصة. ولكن ما وراء الضحك والهذر المصاحب للفُكاهة، كنتُ أحسُّ بثقلٍ حارّ في معدتي في كل مرة يُثار بها الموضوع؛ متخيّلًا أن جمر الإذلال الذي أبصرتهُ متأججًا في عينَي ذلك المهرج لم يبارحني قطّ.

بعد وقتٍ قليل، انبعثَ نفس الصوتِ البليد الأغنّ من مكبر الصوت.

قالَ، والسخرية الدنيئة تتقطّر منه: الفانشيول العظيم!

افترضتُ أن المهرج على يساري الذي كان يخاطبني آنئذ هو صاحب الحواجب المتعددة التصاعدية.

أعلمُ بم تفكرُ أيها الفانشيول العظيم جدًّا.

– ماذا؟

– أنت تفكر بأنك أفضل منا نحن البقية.

– لا، ليس صحيحًا.

– هل سمعتَ أمثولة الرجل ذي الشعر الأحمر للكاتب والفيلسوف العظيم دانييل خارمس[1]؟

– في الواقع، لا.

– حسنًا، أنت مثل الرجل ذي الشعر الأحمر الذي كتبَ عنه يا فانشيول، لذا استمع إليّ بعناية:

«كانَ ثمّة رجل ذو شعر أحمر لا عينان له ولا أُذنان. ولم يكن لهُ شَعرٌ حتى، لذا كانَ أحمر الشعر على المستوى النظريّ فحسب. ولم يكن بوسعه الكلام، لأنه لم يكن لديه فمٌ. ولا حتى أنفٌ أيضًا. لا ولم تكن له ذراعان ولا حتى ساقان. لم يكن له معدة، ولا كتفان، ولا عمود فقري، ولا أمعاء على الإطلاق. لم يكن للرجل أي شيء! وعليه، ما من وسيلة لنعلم عمّن نتحدّث. في الحقيقة، من الأفضل عدم قول المزيد عنه».

نهاية القصة.

– انتهت القصة؟

– انتهت القصة.

– هذه ليست أمثولة. هي حكاية رمزية.

– إنها أمثولة رائعة، بل تجاوزت الروعة بذاتها، وهي تبدو مستوحاة منك يا فانشيول. ما رأيك؟

1- **دانييل يوفاتشوف خارمس (1905–1942)**: كاتب روسي ومسرحيّ وشاعر عبثي، وممثل تيار المستقبليين في الأدب السوفيتي.

- إنها تعليمية.
- حقًّا؟ فقط تعليمية؟
- غنيّة بالمعلومات وحاذقة. ولكني لا أفهم لمَ قد تكون أمثولة.
- وما الذي تقترح عليّ فعله إزاء ذلك يا فانشيول العظيم؟
- لن أقترح أيّ شيء.
- هذا ما اعتقدته. ألست تدركُ أنه ليس لديك ما تُعطيه؟
- نعم، أدركُ هذا.
- وأن الانقسام بين التصور الذي لديك عن نفسك وتصور الآخرين عنك غير قابل للحلّ؟
- من المحتمل.
- حتى إنك غير قادر على الضحك على نكتة ليست لك. أنت غير قادر على تقدير الدعابة. وهذا ينمُّ عن محدودية فَهمك.
- لا بأس.
- وإذا ما اجتزنا حدود الغرابة والشذوذ، يا فانشيول، فعلى الجانب الآخر يقبع المهرج: أنت مهرج.
- رجاء هذا يكفي.
- وهذا ما أقوله أنا أيضًا يا فانشيول، هذا يكفي. وهلّا أسديتَ لي معروفًا؟
- ما هو؟
- أحتاجُ إلى دراسة عن «الثورة الروسية». هل يمكنك إحضارها لي من محلّ القرطاسية؟
- نعم، بالطبع، قلتُ، وألفيتُ نفسي فجأة مُتمرغًا في الانصياع.
- وأريدُ أيضًا «القطن ومشتقاته» و«القطب الشمالي والقطب الجنوبي»، بالإضافة إلى مرجع آخر يُسمى «الحيتان ومشتقاتها»، وربما أيضًا «أعلام آسيا».
- حسنًا، سأجدها من أجلك.
- أشكرك، ردَّ الصوتُ، راضيًا.

- بالمناسبة، أنت لا تعرف طراز سيارتك الفولكس فاجن أليس كذلك؟ تساءلتُ، وأنا أشيرُ إلى المهرج بالبدلة الحمراء الضيقة، الذي كانَ يرمقني بِصمتٍ تامّ، ويرمشُ من حينٍ إلى آخر.

- فولكس فاجن 70 بيضاء، ما من شكّ في ذلك.

- وبأيّ مركز حجز هي؟

- على ما أظن لا بد أنها في أحد مراكز الحجز في شارع فيروكارويل. ولكن لماذا أنت ذاهب من أجل سيارته؟

- لأنهم قَطروها بسببي.

انتظرتُ ردّ المهرج، الذي تأخر بعض الوقت.

عندما انبعثَ الصوت المتكلم من بطنه مجدّدًا عرفتُ على الفور أنه المهرج الرابع الذي يخاطبني آنذاك؛ المهرّج ذو الوجه الشرير المطلي بالأسود والأحمر. كنتُ حينذاك مستعدًّا للضرب والإذلال، ومحاولاته الفظيعة لإنهاكي والنيل مني. ما لم يعرفه ابن الخنزيرة السمينة هو أن «الطريق السريع» المنقطع النظير غير قابل للإرباك ولا للكسر. اعتزمتُ مباغتته والمواجهة أوّلًا، مُوائِمًا ما بين وجهي وصوتي والورطة التي كنتُ فيها.

فانشيول في خدمتك. ماذا أُحضر لك يا سيدهارتا؟

رانَ صمتٌ طويل.

- ماذا تريدُ يا بني؟ كرّرتُ.

أجابَ أخيرًا، لا شيء.

- حقًا، لا شيء؟ ماذا أُحضِر لك؟

- لا شيء، حقًّا، لا شيء.

ألححتُ بالسؤال: هيا، قل لي. هل من طلب؟ أي شيء؟

- بصراحة، لا يمكنك إحضار أي شيء من أجلي يا سيدي.

- كوب ماء، على الأقل؟

- لا!

- لن ترفضَ كوبًا من الماء!

- حسن، لا بأس، أحضر كوبًا من الماء.

قلتُ، سأجلبه لك، وأنا أنهضُ أخيرًا عن الأرض، مُمطّطًا ذراعيّ وساقيّ. استغرق الأمر مني بضع لحظات لاستعادة توازني، ولكن بمجرد أن شعرتُ بالثبات في حذائي، عبرتُ الغرفة في حالة نشوة صريحة ومفاجئة. أحسستُ بالخفّة، وبأني تحررتُ من شيء ما. أظنُ أن عمي فريدو سانشيز دوستويفسكي كان محقًا حينَ قال إن الإهانة، هي في النهاية، تنقيةٌ للروح. انحنيتُ بتأدّبٍ للمهرجين المتخشبين (الجامودبين)، وخرجتُ من الباب: لا – لا – ترا، لا – لا – ترا.

لم يوجد قطّ الفيلسوف
الذي استطاع احتمال ألم الأسنان بصبر

الكتاب الرابع
المواربات والإيحاءات

«إن الجمود بالمعنى الدقيق للكلمة هو إطلاق تسمية على الشيء ذاته في جميع العوالم، أو على الأقل في جميع العوالم التي يوجد فيها هذا الشيء. وهذا ملائم جدًّا للأرقام وما شابهها. ولكن من دون تداخل العوالم، لن نتوقع اسمًا عاديًّا مناسبًا لشخصٍ أو لشيءٍ ما -لسكة الحديد مثلًا- أن يكونَ بالدّقة الصارمة. ومع ذلك، قد يكون الاسم العادي المناسب شِبه صارم: أيّ، أنه قد يُسمّى في عالمٍ آخر النظير هناك لما يُسمّى هنا».

• **ديفيد لويس**[1]

عليَّ أن أُفيد، بأني ذات صباح، لا أعلم في أي وقت على وجه الدّقة، خرجتُ إلى الشارع بعد أن أمضيتُ يومًا وليلة في «غرفة الأشباح» مثلما دأبَ عمي روبيرت سانشيز فالسر[2] على تسمية غرفة الجلوس في بيته. كنتُ قد فقدتُ أسناني، وَنمتُ على مقعد، وتركتُ نفسي تتعرض للإذلال

1- **ديفيد لويس (1941-2001)**: فيلسوف أميركي. له إسهامات بارزة في مجالات فلسفة اللغة، وفلسفة العقل، وما وراء الطبيعة ونظرية المعرفة والمنطق الفلسفي. من كتبه «التقليد: دراسة فلسفية».

2- إشارة إلى الكاتب السويسري المتحدث بالألمانية روبرت فالسر **(1878-1956)**

والتعذيب العاطفي على يد ابني، ولكن، على الرغم من كل هذا، كنتُ في حالة ذهنية غريبة، مفعمةً برومانسيّة مُغامرٍ استوائيّ؛ وأعتقدُ أن ذلك لأنني كنتُ دومًا ذا شخصية قوية وراسخة.

في الضوء المعدني المنعكس من الغيوم، تلمّستُ بوادرَ الفَجرِ الأولى، وشعرتُ بالارتياح لأنني كنتُ في مُحيطٍ مألوف: في أحد مواقف السيارات في مصنع عصيرٍ قديم في إيكاتيبيك، على بعدِ بضعة أمتارٍ من فيا موريلوس. كان الجوّ ماطرًا، وتفوحُ منه رائحة المقطورات، ورقائق التورتيلا، والعجلات المحترقة. وفكّرتُ؛ هذا هو المكان الذي أنتمي إليه! وتذكرتُ تلك الأغنية الرائعة لنابليون «فقط لأنك أنت، لهذا السبب أحبك»، وجعلتني الأغنية راغبًا في أن أصدح بالغناء، بأعلى ما في صوتي، ففعلت.

مشيتُ على أرضية المصنع وأنا أغنّي تحت سُحب الصباح الباكر المتموّجة، حتى وصلتُ إلى مَرأب للدراجات. ومن بين العمال الذين وصلوا إلى المصنع، وتوقفوا في المرآب لركنِ مركباتهم، أبصرتُ صديقي العتيق الحكيم تاسيتو[1] –الذي يكتبُ أمثالاً تقليدية على كعك الحظ الصيني من أجل لقمة العيش– وهو يوثِقُ درّاجةً بأحد الأنابيب المعدنية. كانَ متسربلًا برداءٍ واسع (توجا[2]) عاجيّ اللون، وكان شعره ممشّطًا بعناية، وشاربه مُشذَّبا على نمط «فرشاة الرسّام»، كانَ أنيقًا ومميّزًا كَدأبِهِ دومًا. رحّبَ بي ترحيبًا حارًّا وسألَ عن حالي، ولكني عندما فتحت فمي لأجيب، لاحظَ أسناني المفقودة، وعجزَ عن إخفاء صدمته.

– ماذا حدثَ أيها الطريق السريع؟[3]

قلتُ: كما ترى يا صديقي العزيز، لقد فقدتُ أسناني.

وأجابَ بهدوئه المعتاد: ليكن عندكَ بُعدُ نظر، إنها لا تؤلمك.

قلتُ: شكرًا لك، أظن أن ابن العاهرة ابني سرقها. ولكني لستُ متأكدًا. سأذهب للبحث عنها.

1- إشارة إلى المؤرخ الروماني بابليوس كورنليوس تاسيتوس (56 م – 117 م).

2- توجا: **toga** ثوبٌ روماني فضفاض.

3- جميع عبارات «شخصية تاسيتو» أعلاه قد وردت بالنص الأصلي باللاتينية.

- عندما يبدأون باتخاذ قراراتهم بأنفسهم، تضيع فرصتنا.

- بالضبط، اسمع يا صديقي العزيز، هلّا أعرتني درّاجتك لأبحث عن أسناني؟

أخبرني بأن الدراجة لشقيقه، وسألني إن كنتُ قد صادفته. فأجبتهُ بالنفي، وبأنني لم أرَه منذ سنوات. على ما يبدو أن شقيقه تناول جرعة قاتلة تقريبًا من صبّار «البيّوت[1]» قبل أسبوع وهامَ على وجهه في شوارع إيكاتيبيك. وكان تاسيتو يبحث عنه لأيام عدّة كي يعيد له دراجته. وأنا شخص عمليّ. لذا اقترحتُ عليه حلًّا معقولًا:

- بدلًا من ربطها بالسلاسل، لمَ لا تسمح لي باستعارة الدراجة، فأبحثُ عن أخيك بينما أحاول إيجاد أسناني؟

تاسيتو بدوره كانَ دومًا متعقّلًا وكريمًا.

وإذ ناولني مقود الدراجة قال: وآمال فارغة، مثل بعض الأحلام، تتيقظ.

بعد ذلك، أخرجَ من حقيبة جلدية، كان يحملها قطريًّا على صدره، كيسًا من كعك الحظ الصيني ووضعها في سلة الدراجة بإيماءة رصينة:

- فليرافقكَ كعك الحظ الصيني العتيق أثناء بحثك عن الحكمة.

شَكرتهُ بإخلاص وركبتُ الدراجة. ثمَّ عبرتُ شارع موريلوس وانعطفتُ إلى سونورا نحو الشرق، عاقدًا العزمَ على تنفيذ كلّ مهامي، ربما أعثر على شقيق تاسيتو الضائع، وربما أستردُّ أسناني. انبَسطت من أمامي سماءٌ فسيحةٌ صافية، والشمس بدأت لتوّها بالظهور من بين قضبان التسليح العارية على أسطح المنازل.

في ذلك الوقت من النهار، كان المحل الوحيد المفتوح هو «Las Explicaciones»، على تقاطع سونورا ولاس توريس. هذا المحل مشهور لأن القهوة تكلّف بيزو واحدًا، ورغيف الخبز خمسة بيزوات، ولديهم دائمًا عدة

1- الصبار المكسيكي «البيّوت أو البيوط»: peyote ينمو في الشمال الشرقي للمكسيك، وهو صبّار صغير لا أشواك له يُسبب الهلوسة الشديدة إذ يحتوي على مُخدر الميسكالين، ويُستخدم في المكسيك في الطقوس الروحانية (الشامانية)، كما يُستخدم في المجال الطبي لعلاج أمراض متنوعة.

نسخ من الجرائد اليومية. توقفتُ هناك من أجل الفطور ولطلبِ جريدة، وكوب نسكافيه لأغمس به كعك الحظ الصيني الذي أعطاني إياه تاسيتو. استخرجتُ القصاصات الورقية التي كُتبَت عليها عبارات الحظّ، ثمّ غمستُ كلّ كعكة ونقعتها في القهوة إلى أن صارت نديّة بما يكفي لابتلاعها دون خشية من إيذاء لثّتي العارية. ووضعت القصاصات الورقية في جيب سروالي إلى وقتٍ لاحق.

بالإضافة إليّ، كانَ الزبون الآخر الوحيد في المقهى شابًّا نحيلًا حذرًا، وجهه منمّشٌ بِنَمشٍ بلون التبغ، وكانَ غارقًا في التركيز. كان مرتديًا بذلة صفراء زاهية من ثلاث قطع، وكانت فضفاضة عليه، ومعتمرًا قبّعة من البانما. وكانَ جالسًا إلى طاولة بجوار نافذة بدأ يتسلل من خلالها ضياء الصباح الباكر؛ وكان ممسكًا بقلم رصاص ويدوّن بصمتٍ في دفتر ملاحظات.

من طاولتي، سألته ما الذي كانَ يكتبُ عنه كل هذه الكتابة. فقال لي وعيناه ما تزالان على مفكرته، إنه كانَ يخطط فقط للقيام بمسيرة ريلينغو[1] سيرًا على الأقدام.

– مسيرة ماذا؟ قلتُ مُتمتمًا بصوتي الجديد الأحمق الذي بلا أسنان.

– مسيرة حولَ الفجوات، سيدي، حولَ الأراضي الشاغرة، حول مساحات لا مُلّاك لها أو استخدام محدد. وضّحَ لي مع ذِكر هذه الأمثلة الثلاثة.

فغرتُ فاهي مثلَ كتكوتٍ فقسَ للتوّ، وقلتُ، مُشيرًا إلى مغارتي الدرداء:

– مساحات فارغة مثل هذه؟

رفعَ الشابُّ بصره، وقد أعارني انتباهه أخيرًا. اغتنمتُ انتباهه وواصلتُ حديثي، مع الحرص على ألّا أفقد ذاك الاهتمام:

– ما اسمك؟

– يعقوب دي فوراجيني[2]. ولكنهم ينادونني فوراجيني.

1- الريلينغو: relingo وردت في كتاب المؤلفة The Sidewalks وتعتقدُ الكاتبة أن المفردة ذات صلة بِـ realengas المشتقة من القشتالية القديمة، وهو مصطلح يشير إلى قطع الأراضي المهجورة والشاغرة التي لا تخص الدولة.

2- إشارة إلى يعقوب دي فوراجيني (1230–1299): Jacobo de Voragine/ بالإيطالية Jacopo da Varazze ويُعرف باسم المبارك. وهو مؤرخ تاريخي إيطالي، وقد شغلَ منصب رئيس أساقفة جنوة. مؤلف «الأسطورة الذهبية» أحد أشهر الأعمال الدينية في العصور الوسطى، وهو يحتوي على قصص قديسين وشخصيات أدبية مشهورة.

– من تكون؟ مغن وكاتب أغان؟ فنان؟

– لا، أجابَ بنبرة ميلودرامية. أنا كاتب، ومرشد سياحيّ تابع للكنيسة في المدينة. أعيشُ من الأخيرة، وأموت بالأولى.

– آه، فإذن لا بدّ أنك تعرف الكاتب الذي ألّفَ كتابًا وبدّلَ أسنانه.

– كلا يا سيدي، من يكون؟

– كاتبٌ بدّل كل أسنانه بعد تأليف كتاب. هذا كل ما هنالك.

– مذهل. ساحر. عظيم. قالَ بتردد، غير متيقن من صفاته تلك.

– بالمناسبة، غوستاڤو سانشيز سانشيز، أو «الطريق السريع» فقط، في خدمتك. هل تمانع لو أتيتُ وجلستُ معك في الشمس هناك؟ لا أريد مقاطعة تركيزك.

– بالطبع، تفضل بالجلوس، على أية حال لم يكن لديّ فكرة واحدة طيلة الصباح.

طلبتُ ثلاثة أكواب أخرى من النسكافيه –اثنان لي وواحد له– وقعدتُ قبالة الشاب. ولاحظتُ أنّ يديه المهزولتين مروّستين بأظافر التوتر القصيرة.

– إذن أنت وافدٌ جديد على الحي؟

– هذا صحيح يا سيدي.

– وكيفَ اعتزمتَ أن تصير مرشدًا سياحيًّا هنا إن كنتَ لا تعرف المكان؟

– لا، السيّاح لا يأتون إلى هنا. أنا أعيشُ في إيكاتيبيك، لكنني أقود جولات مشي سياحية في مكسيكو سيتي.

– هل تعيش بمفردك؟

– لا، أعيش مع أخوين يعملان في تجارة الكتب. لا أعرف اسميهما، ولكنهما فيما بينهما يناديان بعضهما بعضًا «عزيزي والذي يَفهمني/ دارلينغ وآندرستاندِنغ» دونما تمييز. لديهما مطبعة ودار نشرٍ اسمها «الركن الثقافي».

– ولماذا برأيك لم تتمكن من الكتابة اليوم؟

– لا أعلم. ربما لأنني مرعوب من عدم الجدوى.

– عدم الجدوى؟

– ثمة الكثير من الأشياء بالفعل –راحَ يحكي بنبرة مُصاب بمرضٍ مزمن–

الكثير من الكتب، والكثير من الآراء. كلّ ما سوف أكتبه سيضيف فقط إلى كومة القمامة الهائلة التي تركها كل شخص من خلفه. هل كلامي منطقي؟

- كلّ المنطق. ولهذا السبب أنا بائع في المزادات العلنية.

- أنت؟ هل تُقيم مزادات علنية للأعمال الفنية؟

- أبيع أي شيء يعترض سبيلي.

- مثلًا؟

- مثلًا، بوسعي المزايدة على اسمي (غوستافو). جمعتُ ستة أسماء متماثلة. أدعوها سلسلة «الغوستافو الدائرية»، لأنه من المفروض المزايدة على هذه «الأسماء المتجانسة» بالإطناب والإيحاءات الملغزة، بما يُحاكي صفات وإسهابات «ستاتيوس[1]».

- وكيف يكون ذلك؟

هكذا:

> *برجه الحوت، وَطالِعه العقرب. ولدَ في سان آندرياس، تشالتشيكومولا، في الثامن عشر من شهر آذار، عام 1911. كان رئيسًا للمكسيك من عام 1964 ولغاية 1970، خلال هذه الحقبة: غيّبَ الطلاب، احتل عسكريًا الجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك، زجّ العمال في السجون، أقالَ المعلمين، وسرّحَ الأطباء وعمال السكك الحديدية، الذين احتجّوا على انخفاض الأجور. ماتَ بسرطان القولون والمستقيم.*

- من يكون؟ سألتُ فوراجيني.

- ليس عندي فكرة، أيها الطريق السريع. آسف.

- إنه الرئيس غوستافو دياز أورداز، بالطبع. لنجرّب واحدًا آخر.

1- بوبليوس بابنيوس ستاتيوس (45 م – 96): شاعر روماني بارز، ألفَ اثني عشر كتابًا من الشّعر الملحمي. وكان الشاعر الإيطالي دانتي أليغيري من أكثر المتأثرين به في ملحمته الكوميديا الإلهية.

ولدَ في التاسع عشر من إبريل عام 1801. من بُرج الثور، وطالعه الميزان. واضع دراسة علم النفس الفيزيائي، ومن روّاد علم النفس التجريبي. كما اكتشفَ أيضًا الصيغة الشهيرة S=KlnI، التي تصف العلاقة غير الخطية بين الأحاسيس والانطباعات النفسية وشِدّة المنبهات الجسدية. كانَ نَشِطًا، ملحِدًا، زير نساء، ورجلًا طيب القلب. قضى نحبه في 18 نوفمبر 1887.

- مَن أقصد؟
- آسف، لا فكرة لديّ.
- غوستاف تيودور فيشنر. واحدًا آخر:

برج القوس، كاتب، بدين، فرنسيّ.

- أوه! غوستاف فلوبير؟
- أجل، هو بالفعل.
- حسنًا، أعطني واحدًا آخر.
- حسنًا:

مِن بُرج السرطان، وَطالعهُ الدلو. ولدَ في التّابع من تموّز عام 1860، وتوفّي في الثامن عشر من أيار عام 1911. يهوديّ، من مواليد بوهيميا، ألّفَ سيمفونيات مالر، من 1 وحتى 10، إلا أنه لم يكمل العاشرة لأنه مات قبل إتمامها. كان متزوّجًا من السيدة ألما مالر، التي كانت أيضًا على علاقة مع فالتر غروبيوس، فرانتس فيرفل، كليمت، ماكس بوركهارد، ألكسندر فون زيميلنسكي، أوسكار كوكوشا، ويوهانس هولنشتاينر، على سبيل المثال لا الحصر.

- هذا سهل: غوستاف مالر.
- جيد، جيد. واحد آخر:

برج القوس. كانت ناشطة نسوية، ولدت في هامبورغ سنة 1868.

– هل هذه كل المعلومات؟

– نعم، المعذرة.

– لم أعرفها.

– إنها ليدا غوستاڤا هيمان. سأعطيكَ اسمًا أخيرًا:

برجهُ السرطان، وَطالعه السرطان. كارثة فلكية. عاشق وزوج محتمل لزوجة غوستاڤ مالر. كانَ رسّامًا رمزيًّا، وعرضة للصداع النصفي والعنقودي، وميّالًا إلى التعابير الإيروتيكية.

غوستاڤ كليمت؟

صحيح.

قال: هذا مُسلٍّ. ولكن، كيف يمكنك بيع الأسماء؟

– أقوم بالأمر فحسب. في النهاية، ما يبيعه الباعة في المزادات العلنية، أسماء الناس فقط، وربما الكلمات. كل ما أفعله هو أنني أمنحها محتوى جديدًا.

– هلّا شرحت؟

– كما ترى، أنا مثل هؤلاء الذين ينقبون في قمامتك. ولكن حسب الأصول. فأنا أُنقّي وأجِد. وأُعطّر وأُنظّف وأُطهّر. وأُعيد التدوير.

حدّق الشاب يعقوب دي فوراجيني في فنجان النسكافيه الذي لم يمسّه بعد. تناولَ وعاء السكر، ووضع في الكوب كمّية مُريعة من السُّكر، وباستخدام قلم الرصاص، شرعَ يحركُ القهوة على نحوٍ عشوائي.

– لنرَ. اقرأ عليّ ما تكتبه الآن، قلتُ له، محاولًا إبقاء المحادثة حيّة.

– لكن ما كتبته ليس مميّزًا، مجرّد وصف لناصية شارع.

ظللتُ صامتًا، بانتظار أن يبدأ بالكلام. تردد الشاب للحظة، إلا أنه فتح مفكرته، صقلَ حنجرته، وقرأ:

مقابل البيت الذي انتقلتُ إليه متجرٌ لأجهزة الكمبيوتر. أستطيع رؤيته من نافذة الحمّام على السطح، المكان الوحيد الذي يمكنني التدخين فيه بهدوء. بعد ظهر كل يوم، بينما يبدأ الرجال الذين يعملون في متجر الأجهزة بالإغلاق، يُخرِجُ المالك، وهو رجل خَرِف، كرسيًا قابلًا للطيّ إلى الرصيف ويشرعُ في شحذ رؤوس المسامير الموضوعة في صندوق معدات بجانب قائمة الكرسي. يشحذها على الأسفلت بعناية، المسمار تلو الآخر، ثم يرمي بها على الشارع. لا تدوم هذه الطقوس أكثر من عشر دقائق. أنفضُ سيجارتي في المرحاض، وهو يطوي كرسيّه.

هذا ما استطعت التوصل إليه، قال ذلك، وفي عينه نظرة تلتمسُ الاستحسان.

– لطيف، قلتُ.

– شكرًا.

– وخطك صغير وحلو.

– أشكرك.

– ولكن كلّ ما ذكرته خطأ.

– لماذا يا سيدي؟

– إنك تتحدث عن متجر أجهزة الكمبيوتر الذي يملكه السيد ألفونسو ريس، صحيح؟ الكائن على ناصية شارعي دورانغو وموريلوس.

– كيف عرفت ذلك؟

– آه، أيها العصفور الصغير، هذه حكاية طويلة. ولكن الفكرة المهمة هنا هي أن وصفك غير دقيق. لأن السيد ألفونسو ليسَ خَرِفًا، ولا يشحذ تلك المسامير.بل يثلّمها. إنه يثلّم تلك المسامير المحنية بعض الشيء، وعندما يثلّمها كفاية، يرمي بها في الشارع بحيثُ لا تثقب الإطارات، أو تؤذي السيارات.

– ولماذا لا يرميها في حاوية النفايات؟

- لأنها تمزّق الأكياس.

- فهمت.

- اسمع يا يعقوب، فوراجيني، يا يعقوب فوراجيني الشاب، أعتقدُ أنني أستطيع مساعدتك إن ساعدتني. كما تعلم، حكّ لي ظهري، وأحكّ لك ظهرك.

- لستُ متيقّنًا إن كان بإمكاني مساعدتك يا سيدي، لستُ نافعًا بالقدر الكافي، ولكن تابع، هات ما عندك.

- أنا بحاجة لاسترداد كرامتي -أسناني- إذ إنني لا أستطيع إعادة تدوير أي شيء من دونها، ناهيك عن الأكل والتكلم مثل البشر. وأنت مفتقر إلى المال، والوقت، والحرية، والسلام، وخبرة العمل، وحياة الشوارع، والنساء، والمحفزات، وكل ما أنت بحاجة إليه لتسطر روائعك بالتأكيد.

- هذا صحيح يا سيدي.

- ولكن ليس بوسعك الحصول على أيٍّ منها. لا تستطيع، لأنك تسافر ساعتين يوميًّا إلى قذارة قلب مدينة مكسيكو سيتي، كي تشتغل لدى ابن عاهرة يَستغلك، ثمّ ترجعُ إلى شقتك، حيث يقيم شبّان آخرون مثلك -جميعهم يرتدون ملابس غريبة- والبيت مثل زريبة الخنازير، وهكذا تبدأُ بغسل الصحون، وَبِكنس كُرات الشّعر من على الأرضية، وبِطوي القمصان، وبِنَشر جوارب مفردة. وتصنع لنفسك شطيرة من الجبن، فقط لأن اللحم بات مكسوًّا بطبقة لزجة خضراء من العفن. وبنهاية النهار، تكون منهَكًا ومُحبَطًا لدرجة أنك فقدت الرغبة بالجلوس، والقيام بالشيء الوحيد الذي تحبّه.

- أنا عاجز عن الكلام، يا سيد «الطريق السريع». كيف علمت بأمر كُرات الشعر؟

- لستُ رضيعًا محمولًا بين الذراعين.

- نعم، هذا واضح. لكن ما زلت لا أفهم، ما الذي ترمي إليه يا سيدي؟

- أن تصير مبدعًا حقيقيًّا.

- وما الذي تقترحه لأفعل ذلك؟ سألني بنبرة شِبه منفعلة، وهو يعدّلُ قبّعته.

– ههنا يكمن دوري. بوسعي منحكَ أشياء كثيرة؛ السكن المجاني، على سبيل المثال. المبدع بحاجة إلى سكن مجاني. لديّ قصرٌ في شارع ديزنيلانديا، مع أفضل مجموعة من الأشياء التي شوهدت على الإطلاق. ولا يذهب فكرك بعيدًا فتحسبني من الصنف المنحطّ مثل مايكل جاكسون. أنا أحبُ النساء اللائي من سني.

– سكنٌ مجاني؟ وماذا بعد؟

– يمكنني منحك المعرفة.

– مثل ماذا؟

– كأن أدلّك كيف تتجنّب دفع ثمن وجباتك، أو كيف تركب الحافلات مجّانًا. أستطيع أن أعطيكَ أيضًا الشارع. أعرفُ هذا الحيّ أكثر من أي شخصٍ آخر، وبإمكاني منحكَ هذه المعرفة كلها. ستجري الأمور على النحو الآتي: سأقصُّ عليك حكاية كل ركن وزاوية؛ سأعرفك على معارفي، سآخذك تحت جناحي، مثلما يقولون. ومع الوقت، عندما تكون قد تعرفت إلى هذا المكان جيّدًا، يمكنك افتتاح مشروعك السياحي الخاص هنا. وهذا كل ما في الأمر.

– وأين سأجد السيّاح؟

– سيأتون من تلقاء أنفسهم. ما يهمّ هو سرد القصص عن الحيّ. وبمجرد أن تمتلك هذه القصص، سيتهافت الناس إليك لسماعها. فالأماكن والأشياء مصنوعة من الحكايا.

– لستُ متأكدًا من ذلك.

– أليست رواية القصص ما تفعله؟

– نعم.

– حسنًا، أنت تثقُ بنفسك ولو قليلًا، أليس كذلك؟

– لنفترض أنك محقّ. وبأنني سأوافق على عرضك. ما الذي ستطلب مني فعله بالمقابل؟

– لا شيء تقريبًا. أن تكتب لي فقط.

– أكتبُ ماذا؟

– أي شيء أكلّفكَ بكتابته. أوّلًا أريدُ منك كتابة قصتي، قصة أسناني. أنا أرويها عليك، وأنت تكتبها فقط. نبيع ملايين النسخ، وأتمكنُ أنا من تصليح أسناني. ثمّ، عندما أموت، تكتبُ عن موتي أيضًا. لأن قصة الإنسان لا تكتمل أبدًا إلا بموته. نهاية المهمة.

– وماذا أيضًا؟

– حسنًا، إذا ما اتفقنا وسارت الأمور بيننا على ما يُرام، بوسعي منحك وظائف أخرى.

– مثل ماذا؟

– مثلًا، أنا بحاجة إلى شخص لإعداد كتالوج لمجموعتي من المقتنيات، لأنني الآن أجري مزادات على مقتنياتي الخاصة فقط. لدي أفضل مجموعة من المقتنيات في العالم. وبما أنه لم يتبق لي وقتٌ كثير في هذا العالم، أودُّ إقامة مزاد علني كبير، أحتاجُ فيه إلى الكتالوج الخاص بي. ولكن لا نريد أن نستبق الأحداث. في الوقت الحالي أنت ستكتب فقط سيرة أسناني الذاتية.

– في آخر المطاف ابتسمَ الشاب الكئيب فوراجيني إلا أنه لم يُجِب بشيء.

– عَلامَ تبتسم؟

– لا شيء. ستكون هذه الكتابة سيرة حياتك[1]، وليست سيرتك الذاتية[2] بقلمك.

– آه! أرى أنك ستكون كاتبًا جيّدًا أيضًا.

– لِمَ تقول ذلك؟

– لأنك عندما تبتسم لا تُظهِر أسنانك. الكتّاب الحقيقيون لا يُظهِرون أسنانهم أبدًا. وعلى النقيض، فإن النصّابين يَعرِضون هلال أسنانهم المشؤوم عندما يبتسمون. تحقق من الأمر بنفسك. ابحث عن صور جميع

1- السيرة: Biography ترجمة حياة إنسان بقلم شخص آخر.

2- السيرة الذاتية: Autobiography قصة حياة الكاتب بقلمه.

الكتاب الذين تحترمهم، وسوف تجد أن أسنانهم تظلّ لغزًا خَفيًّا على الدوام. أعتقد أن الاستثناء الوحيد هو الأرجنتيني خورخي فرانسيسكو إيسيدورو لويس.

– بورخيس؟

– هو بذاته. أعمى وأرجنتيني. لكنه لا يُحتسب لأنه كان أعمى، فربما لا يمكنه أن يتخيّل نفسه مبتسمًا، على الأقل، ليس بتلك الابتسامة التي كانت ترتسم على وجهه وهو أعمى، إن كنتَ تعلم ما الذي أقصده.

– إن بورخيس هو مثلي الأعلى. هل قرأت له؟ سألَ الشاب فوراجيني بحماس طفوليّ.

– ليسَ بقدر ما سوفَ أقرؤه له في المستقبل، أجبتهُ.

– أظنُّ أننا سنفهم بعضنا بعضًا، سيدي الطريق السريع، ومن دواعي سروري أن أكتب سيرة حياتك.

– إنها سيرتي الذاتية، يا عود الثّقاب العنيد، لأنها قصتي، ولأنني أنا من سيرويها، وأنت سيكون عليك نسخها فقط.

– كما تشاء يا سيدي. سأكون سعيدًا بكتابة السيرة الذاتية لأسنانك.

– وهو المطلوب.

أمضينا بقية الصباح في طلب النسكافيه، وتبادُل القِصص، وترتيب تفاصيل الاتفاق فيما بيننا. بحلول الظهيرة، بدأت شمس الصيف تُسخِّنُ أرضية المقهى الخرسانية. جعلتنا النسكافيه مرحين ومفعمين بالحيوية مثل مُدمني الكوكايين الأصلي، وقد نفدت من عندنا كل كعكات الحظ الصينية.

قلتُ: لنذهب يا فوراجيني. وتركتُ على الطاولة قطعة نقدية من فئة العشرين بيزو ووجه بينيتو خواريز[1] للأعلى. ثم أردفتُ: لديّ دراجتي الجديدة هنا في الخارج، أعطاني إياها صديقي.

قال: درّاجتي هناك في الخارج أيضًا.

– ممتاز. سنذهب لإحضار أغراضك، ثمّ سآخذك إلى ديزنيلانديا.

1– بينيتو خواريز (1806–1872): أحد رؤساء المكسيك.

– اتفقنا.

– عظيم. لا تقل المزيد. هلّا ذهبنا؟

– الآن؟

– في هذه اللحظة بالذات.

نهاية المحادثة.

أمثال كعك الحظ الصيني بقلم تاسيتو:

- الرجلُ على قمّة الجبل لا يسقط.
- التنين القابع بلا حراك في المياه العميقة يُمسي فريسة لسرطانات البحر.
- الحظّ لا يأتي برفقة نظيرٍ له، لكن المصائب لا تأتي فُرادى أبدًا.
- عندما يتعاون الأَخَوان تستحيلُ الجبال ذهبًا.
- عدم السَّمع ليسَ جيّدًا كما السَّمع، والسّمع ليس جيّدًا كما النَّظر، والنَّظر ليس جيّدًا كما المعرفة العقلية، والمعرفة العقلية ليست جيّدة كما الفعل؛ التعلّم الحقيقي يستمر حتى نقطة التنفيذ.
- عندما يتغير اتجاه الريح، بعض الناس يبنون جدرانا، والبعض الآخر يبني طواحين الهواء.
- اللسانُ يقاوم لأنه ليّن، بينما تُذعِن الأسنان وتُعطي لأنها صلبة.
- ليكن كلامك من فم بطنك (قلبك).

الكتاب الخامس

المجازات

دفعـت بـي توقعاتـي إلـى استنتاج أنّـه كانَ علـيّ العودة إلـى الأُسـس، وإعـادة التفكير ليس فـي دلالات الأسـماء ولكـن أيضًـا فـي تركيبها، ميتافيزيقيـا الكلمـات: كيـف ينبغـي تحديـد الكلمات؟ ما طبيعة الكلمة؟

إن الأسـماء هـي نوعٌ خـاص مـن الكلمات، خـاصّ للغايـة إلى درجـة أن البعـض يعتقـدُ أنها ليسـت جـزءًا مـن أيـة لغـة علـى الإطـلاق. وأنا أعـارضُ هـذا القول، وسـوف أؤكد علـى الطرق التي تشـبه بها الأسماء الكلمات الأخرى، إلا أني لا أختلف في أن الأسماء خاصة من نواحٍ عدة.

• ديفيد كابلان[1]

لستُ متأكدًا مما إذا كان من المفروض أن يكون هذا الجزء في القصة، إذ إنه الجزء الذي على ما يبدو يُفضي إلى نفسه، فأغدو حائرًا مضطربًا وأوشِكُ أن أضلّ طريقي. ولكني من جهة أخرى لستُ أرى سبيلًا إلى تجاهله.

1- ديفيد كابلان (1933): فيلسوف أميركي. يتمحور عمله الفلسفي على فلسفة اللغة والمنطق والميتافيزيقيا ونظرية المعرفة.

لمّا عدتُ أنا وفوراجيني إلى ديزنيلانديا، اكتشفنا أن منزلي ومستودعي قد تعرّضا للاقتحام والسرقة. اختفت مجموعتي، كلّ قطعة منها. في البداية أحسستُ بارتياح هائل. ثمّ بقليلٍ من الحزن. وشعرتُ بعد ذلك بعدم التصديق، وبالغضب. ثمّ، من جديد، وعلى نحو أعمق، شعرتُ بمزيج من الحزن والارتياح معًا؛ بانعدام الوزن تقريبًا.

الأيام التي تلت كانت صعبة ومُقلِقة، وأفضّلُ عدم الحديث عنها. حضرتُ جلسات علاج نفسي جماعية. تابعتُ سباقات الفورمولا 1. تدبّرتُ في الكاثوليكية. كنتُ تائهًا مثل السنونو في القارة القطبية الجنوبية، كما يقول المغنّي نابليون.

في صباح أحد الأيام، بينما كنا نشربُ القهوة، حاولَ فوراجيني إقناعي بالذهاب إلى طبيب الأسنان، والحصول على طقم أسنان مؤقتة، كي أتمكن على الأقل من البدء في تناول الطعام المناسب. عارضتُ الفكرة قليلًا، لكن الصبيّ كانَ على حقّ، وأنا رجلٌ متعقّل على الرغم من بعض العناد في شخصيتي. بمجرد أن حصلتُ على طقم الأسنان الاصطناعية الجديد -كان رخيصًا وَضيّقا بعض الشيء لكنه أدّى الغرض منه- شرعتُ بإملاء سيرة أسناني على الشاب. استلزم الأمر مني بعض الوقت لإيجاد البُنى الصحيحة، لكن فوراجيني قالَ إنه يجب أن تكون هناك مقدمة، وعرض، وخاتمة. وَيسّر لي ذلك عملية البدء.

بعد شهر، كما وعدتهُ، بدأنا بِـ «تعليم فوراجيني الفنان». وكانَ درسنا الأول: التقاط بعض الأغراض التي تركها ابني في المعرض بجانب معمل العصير وإعادة تدويرها. حوالي الساعة الواحدة صباحًا من يوم أحدٍ هادئ على نحوٍ خاص، أتى صديقي إل بيرو، الذي كان ما يزال يعمل سائقًا في المصنع، ليقلّنا في شاحنةٍ ضخمة. سلكنا الطريق الخلفي حيث لم تكن هناك أية نقاط تفتيش أمنية. ركنَ إل بيرو الشاحنة في أحد الأزقة، وناولني مجموعة من المفاتيح، ودخلنا أنا وفوراجيني إلى المبنى الصغير المجاور للمصنع، حيثُ يقع المعرض. بدأنا البحث من المكتب على يمين مدخلِ المعرض. لم نجد كثيرًا من الأشياء هناك، لكن فوراجيني التقطَ كاتالوجًا من المكتب، وكانَ مفيدًا فيما بعد. واستوليتُ على بعض

أقلام الرصاص، التي أصبحت فيما بعد مفيدة أيضًا، بما أن فوراجيني كان يكتبُ كثيرًا.

تجوّلنا بحذر فقد كان المعرض مظلمًا تمامًا، وقررنا عدم تشغيل الأضواء الرئيسية في حال وجود كاميرات. كانت الإنارة الوحيدة مُنبعثة من الإضاءة المسلّطة على الأغراض. ويجدر بي القول إن الأشياء بدت في هذه الإنارة بالذات أكثر جمالًا مما أتذكرها عليه عندما رأيتها للمرة الأولى صباح اختطافي القصير. تعرفتُ أوّلًا على الأزياء المخملية، والنوتة الموسيقية على مِنصّتها، والسّاق الاصطناعية.

لستُ من النوع البكّاء، ولا حتى عندما أشاهد الأفلام. عندما رأيتُ أسناني القديمة فجأة -التي بعتها في المزاد العلني في الكنيسة- لم أبكِ. صهلتُ بفرح. كانت مرتبة في كومة صغيرة، ومضاءة عموديًا من الأعلى، وموضوعة على قاعدة خشبية بيضاء. بدت فاخرة حقًّا وذات أهمية. جمعتها بكلتا يديّ ووضعتها في جيب سترتي.

ما تبقى من العملية تمّ بسرعة وسلاسة. الشيء الوحيد الذي سبب لنا إرباكًا هو لوحة إعلانات متوسطة الحجم تصوّرُ حصانًا، ولكننا تمكنا معًا من جرّها إلى الشاحنة، وساعدنا إل بيرو على إدخالها في الصندوق. بعد بضع ساعات، كنا قد عدنا ثلاثتنا إلى مستودعي، ورحنا نتفحص مجموعة الأغراض الجديدة، ونرتشفُ من زجاجة الأغواردينتي التي أحضرها إل بيرو. «خيرٌ لك أن تكون الرجل المحظوظ على أن تكون ابنه»، قال إل بيرو قبل أن يغفو في كرسي الأكابولكو. ليس بوسعك إلا أن تحبّ رجلًا مثل هذا.

في صباح اليوم التالي أيقظتُ فوراجيني عند الساعة السابعة، وقدتهُ إلى المطبخ. كان إل بيرو قد عاد إلى منزله، فهو شخصٌ لا يتسبب للغير بالإزعاج أبدًا. ناولتُ مُتدرِّبي الشاب كوبًا من القهوة، ومجموعة من الكراسات من ماركة «سكرايب». كانت لدي أفكار جيدة عن المزاد، والأفكار الجيدة لا تأتي على عجلات، لذلك أردتُ تدوينها على الورق فورًا.

كانت هذه المتوالية سوف تُسمّى «مجازات إيكاتيبيك»، وستعيد تدوير

أغراضنا المجمّعة حديثًا من خلال سرد قصص تجمع أسماء أصدقائي ومعارفي في الحيّ - مع الاعتراف بفضل الفنانين الذين ابتكروا الأعمال، وباستخدام الكتالوج الذي صادرناه بوصفه دليلًا لنا. بلا تعقيدات. إذ إن أفضل الأفكار، ببساطتها، كما هي أجود الأشياء.

– ولكن إذا استخدمنا أسماء الفنانين الحقيقية فسوفَ يُكشَف أمرنا، قال فوراجيني.

– نعم، تفكير سليم أيها الشاب. ينبغي علينا تحويرها.

ثم أردفَ بالقول: ولكن إن حوّرنا الأسماء فسوف تفقد الأشياء قيمتها.

– كلا لن تفقد قيمتها.

– بلى سوف تفقدها.

– فوراجيني، اسكت من فضلك، واكتب ما يلي:

القطعة المجازية رقم 1:

لوحة إعلانات تعرضُ حصانًا

الفنان: دوغ سانشيز إيتكن

الجميع يعلم أن الخيول ليس لديها حسّ التعاطف، قلتُ لآلان باولز[1]. إن رآكَ حصان تبكي أمامه، يكتفي بمضغ تِبنه ويرمش بعينيه. تجهشُ بالبكاء، تفيضُ مقلتاك بالدموع والألم، والحصان يرفع ذيله ويضرط ضرطة طويلة بصمت. ما من طريقة لاستثارة مشاعره. حلمتُ ذات مرة بأن حصانًا يلعق وجهي لعقًا متواصلًا. لكن هذا لا يهم، لأنه حدثَ في الحلم.

«بوسعي أن أؤكد لك أن الخيول في حديقة سنترال بارك في جزيرة مانهاتن تعاني من الاكتئاب»، أجابَ آلان باولز، بعد أن غامرتُ بطرح نظريتي عليه. كنّا بانتظار الحافلة، بالقرب من كشك جرائد «روبن داريو جونيور». لاحظتُ أن آلان باولز كان يتأمّل، بشيء من الحزن، اللوحة

1- آلان باولز (1959): كاتبٌ وناقد أدبي وكاتب سيناريو أرجنتيني.

الإعلانية المدهشة قبالتنا، على الجهة المقابلة من الشارع. كانَ على اللوحة إعلان وصورة حصان –من المحتمل أنه كان حصانًا حزينًا في حقيقة الأمر– يقفُ بجانب سرير في فندق في نيويورك.

– وكيف عرفتَ أن الخيول في حديقة سنترال بارك مكتئبة؟

فأخبرني بأنه كان يقرأ للتو مقالة قصيرة عن نفسية خيول نيويورك.

– في أية صحيفة؟ أجبتهُ بِتحدٍّ.

قالَ إنه قرأها في الصحيفة التي اشتراها من الكشك. وإنه يحملها في حقيبته، هذا إن كنتُ مهتمًّا، وهي واحدة من تلك المنشورات الرخيصة ولكنها جديرة بالثقة. ذكرَ مراسل الصحيفة المجانية والموثوقة أن الخيول في سنترال بارك في نيويورك قد أُصيبت بالاكتئاب.

– وكيف عرفوا ذلك؟ سألته.

قال وقد بدأ صبره ينفد بعض الشي: ثمّة برهان علمي تجريبي. ثم أخرج الصحيفة من حقيبته، فتحها، وراح يبحث عن المقالة. سرعان ما وجدها، وشرعَ يقرأ بصوت عالٍ، مع التوقفات الملائمة وعند اللزوم، رافعًا بصره بين الحين والآخر للنظر إلي والتحقق من أني مُنتبه إليه كلّ الانتباه:

«الخيول في تلك المدينة: 1- تركضُ بأقصى استطاعتها وتَصفقُ رؤوسها وخطومها بالجدران بِعنف. 2- يتساقط شعر أعرافها في حفنات. 3- تعضّ حوافرها إلى أن تسقط. 4- تروثُ وهي مستلقية بدلًا من الرّوث أثناء المشي، مثلما تفعل جميع الخيول الطبيعية. 5- بعض الخيول تنتحر في آخر المطاف.

عندما فرغَ من قراءة المقال القصير، طوى الصحيفة من جديد، ووضعها تحت ذراعه. ابتسمَ في وجهي ابتسامة غامضة. ومضينا في انتظار الحافلة معًا بصمت، مُحدِّقين في اللوحة الإعلانية على الطرف الآخر من الشارع.

القطعة المجازية رقم 2:

نافذة مصنوعة من الضوء

الفنان: أولافور سانشيز إلياسون

لم توقظ الخياطة المتقاعدة مارغو جلانتز[1] ابنها إلى ما بعد العشاء. خلال الأسبوع المنصرم، مارغو جلانتز التي عانت من الأرق، كانت تشعر بالانزعاج من وجود ابنها، ديفيد ميكلوس، الذي عانى بدوره من نوبات النوم القهري[2]. وكان ديفيد ميكلوس قد خسرَ عملهُ على صندوق الدفع في صيدلية الادّخار «Farmacia del Ahorro» لأنه خرَّ نائمًا أكثر من مرة وهو يعمل. طوال الأسبوع الماضي، كان يمضي النهار بِطولهِ وهو يأخذ قيلولات مفاجئة في زوايا غريبة من المنزل. وبما أنّ السيدة مارغو جلانتز لم تكن تعلم بِعلّته هذه، اعتقدتْ أنه تَنبلٌ ومُتسكّع وَكسلان. وكانت تحسدهُ في سرّها على قدرته على النوم في أي ساعة من اليوم.

بعد ظهر يوم الإثنين، بينما كانَ ديفيد ميكلوس يأخذ قيلولة أخرى غير مناسبة على كرسيٍّ ذي ذراعين، ألصقت السيدة مارغو جلانتز صفًّا من الطوابع البريدية على جبهته، بعد أن لعقت كلّ طابعٍ بطرف لسانها، ثمّ حملتهُ إلى مكتب البريد. وضعتهُ برفقٍ على المنضدة، وطلبت من عاملة البريد أن ترسلهُ إلى سورينام. نظرت الفتاة إليها بازدراء وامتعاض، وقالت إنه من المستحيل تنفيذ طلبها لأنه ينقصها أربعة طوابع، ذلك أن إفريقيا تحتاجُ إلى تسعة طوابع، وكان الطردُ يحتوي على خمسة فقط.

- ولكن سورينام في أميركا الجنوبية أيتها الغبية، ردّت المرأة بِحدَّة.

- فإذن اثنا عشر طابعًا، قالت الفتاة مُصَحِّحة.

وقالت أيضًا إن مكتب البريد على وشك الإغلاق، لذا كانَ على السيدة العودة في اليوم التالي.

عادت مارغو جلانتز في اليوم التالي، ثم الذي يليه، مع ديفيد ميكلوس النائم بين ذراعيها بِسلام. لكنها في كل مرة كانت بحاجة إلى شيء آخر؛ طابع، خطاب موثّق من أجل الطرود الضخمة، المزيد من المال، هوية رسمية، الرمز

1- مارغو جلانتز (1930): دبلوماسية وكاتبة وأستاذة جامعية أميركية.

2- النوم القهري أو التغفيق أو الخُدار: مرض عصبي مزمن يتمحور حول فقدان قدرة الدماغ على تنظيم دورات النوم والاستيقاظ بشكل طبيعي.

البريدي الكامل للعنوان الذي أعطتهُ في باراماريبو[1]. وكانت الفتاة، التي لم تكن بالضرورة الفتاة نفسها في كل مرة؛ كانت ترمقها بالنظرة المُهينة ذاتها -ويبدو أن ذلك مردّه إلى السلوك «الروبوتي» والتصنّع الخاص اللذين تمتاز بهما جميع عاملات البريد- وتطلبُ إليها الرجوع في اليوم التالي.

في صباح اليوم السابع، وكان يوم الأحد، قررت مارغو جلانتز السماح لديفيد ميكلوس بمواصلة نومه. استيقظت باكرًا، وأخذت حمّامًا دافئًا، وَقصدتْ محلّ الحيوانات الأليفة. وبما أنه لم يكن هناك كلاب للبيع، تدبّرت أمرها بِشراء أرنبٍ امتلكهُ شخصٌ آخر من قبل. وأسمتهُ «كوكر سبانيل[2]». كان الأرنب هرمًا للغاية، وموقرًا تقريبًا، لذلك عندما حاولت وضعَ شريطٍ حول رقبته لإخراجه من المتجر، قاومَ. حملتهُ إلى المنزل بين ذراعيها، ووضعتهُ على أرضية غرفة المعيشة، عندَ رِجل الكرسيّ الذي كان ديفيد ميكلوس ما يزال نائمًا عليه.

جرّت مارغو جلانتز -ببطء، مفتعلةً أكبر قدرٍ ممكن من الضوضاء- كرسيًّا من المطبخ إلى غرفة المعيشة. وضعت شريطًا للمغنّي تايلور ماك، ثمّ قعدت، ووضعت ساقًا على الأخرى، وغنّت بأعلى صوتها، وحدّقت في كوكر سبانيل، الذي نظرَ إليها بدوره بضيقٍ وَضجر إلى أن أغمض عينيه وَغطَّ في نوم عميق. لاحظت أنّ كوكر سبانيل قد اختار بقعة مُشمسة من الأرضية للنوم فيها، وشعرت ناحيته بحسدٍ شديد. وفكرت بأخذه على الفور إلى مكتب البريد لكي ترسلهُ إلى سورينام، أو إلى أي مكان آخر. لكنها طردت الفكرة مباشرة لدى تذكرها أن مكتب البريد المثير للاشمئزاز والسخيف وغير المجدي لا يفتح في أيام الآحاد. لاحقًا، حاولت إيقاظ الأرنب، بيد أنه رفَّ جفنه رفّة واحدة ثم عاودَ النوم.

انقضت الظهيرة والسيدة مارغو جلانتز تراقبُ ابنها وكوكر سبانيل وهما نائمان، وقد لاحظت كيفَ راح جسم الحيوان الصغير والمغطى

1- باراماريبو: عاصمة سورينام وأكبر مدنها، لغتها الرسمية الهولندية. جدير بالذكر أن سكّان سورينام هم خليط من الأفارقة والآسيوين والأوربيين

2- كوكر سبانيل: أو الكوكر الإسباني (cocker spaniel) سُلالة شهيرة من الكلاب.

بالفرو ينزلقُ تقريبًا بصورة تدريجية في جميع أرجاء الغرفة، بينما كانت الشمس تغرقُ في السّماء، والضوء المتوازي الأضلاع، المُنسكِب عبر النافذة على الأرض، يتحرك نحو الحائط. مما يشير، بهذه الطريقة إلى مرور الساعات.

ولمّا غربت الشمس أخيرًا، واختفت رقعة الضوء كليًّا، فتحَ كوكر سبانيل عينيه. كانت مارغو جلانتز واقفة من فوقه، ممسكة بمقلاة من مقبضها. وباستخدام قاعدة المقلاة، ضربتهُ خمس مرات على رأسه. حالما ماتَ الأرنب كوكر سبانيل، سلختهُ بعناية وطَهته مع إكليل الجبل، وورق الغار، والنبيذ الأبيض. وبعد أن فرغت من عشائها، أيقظت ابنها بحنان ولطف، وَشرّعت نافذة غرفة المعيشة على مصراعيها، كيما يدخل هواء الليل الرطب البارد.

القطعة المجازية رقم 3:

بذلتا الفأر والجرذ

الفنان: بيتر سانشيز

تلعثمت السيدة الشابة فاليريا لويزلي، وهي طالبة متوسطة المستوى في المدرسة الثانوية، وأفرطت في استخدام لاحقة «ly[1]». ونظرًا لأن والديها، السيدة وايس والسيد فيشلي[2]، أرادا منها إلقاء خطاب في حفلٍ عيد ميلادها الخامس عشر، فقد أرسلاها إلى دروس الغناء والخطابة، وتعلّم فنّ مخاطبة الجمهور. كانَ من المزمع أن يكون حفل عيد ميلادها احتفالًا أنيقًا للغاية في قاعة الرقص بالحيّ، وكانَ على الفتاة تحضير نفسها من أجل المناسبة.

من أجل دروس الخطابة وفنّ مخاطبة الجمهور استأجرا المعلم الشهير

1- Ly: لاحقة في الإنكليزية لاشتقاق الظروف من الصفات. تُستخدم لوصف الطريقة التي يحدث بها الفعل.

2- إشارة إلى الفنانين والنحاتين السويسريين المعروفين بيتر فيشلي(1952) ودايفيد وايس (1946).

غيرمو شيريدان[1]. كانت الجملة الأولى التي علّمَ البروفيسور غيرمو شيريدان فاليريا لويزلي ترديدها هي: «كانَ لدى تيتوس ليفي[2] رأس مثل جوزة الهند/ coconut، وكان لدى أوكتافيو باث[3] رأس كبير». على الرغم من قِصر الجملة وبساطتها، فإنها استلزمت من الفتاة جهدًا كبيرًا لنطقها بصورة صحيحة. وفي كل مرة تُخطئ فيها، كانَ البروفيسور غيرمو شيريدان يضربها على راحتي يديها بالعصا. وتعيّنَ على الفتاة تكرار الجملة 112 مرة قبل أن يُعلِن معلمها نهاية الدرس الأول.

في تلك الليلة، بينما كانوا يتناولون طعام العشاء المؤلف من الأخطبوط الجاليكي مع الأرز الأبيض، سأل الوالدان ابنتهما كيف كان درس فنّ مخاطبة الجمهور الأول، وما إذا كانت قد تعلمت شيئًا مفيدًا تود مشاركتهما إياه. قالت الفتاة اليافعة:

- تيتوس ليفي كان مدمن كوكايين/ cokehead.

- ما هذا يا فتاتي؟ سأل والدها.

- تيتوس ليفي كان مدمن كوكايين. كررت المراهقة.

نظرَ والدا ڤاليريا بعضهما في عيني بعض وأكلا ما تبقى من الأخطبوط بصمت.

في تلك الليلة ارتدى والدا الشابة بذلتي الجرذ والفأرة المخمليتين، وعوضًا عن القراءة ومشاهدة التلفاز، مثلما يفعلان كل ليلة تقريبًا، عَمَدا إلى جِماعٍ غريب صاخب وغير منقطع. عندما انتهيا، وما يزالان شبه مرتديين بذلتيهما، استلقى الزوجان وراحا يحدّقان في السقف صامتين.

1- غيرمو شيريدان (1950): ناقدٌ أدبي مكسيكي، وباحث ومعلّق عام.

2- تيتوس ليفي أو تيتوس ليفيوس (59 ق.م-17 م): أحد أشهر المؤرخين الرومان. ولدَ في بادوا في شمالي إيطاليا، وعاش في روما في عهد الامبراطور أغسطس. كانت دراسته مرتكزة على القانون والخطابة. حاز كتابه "التاريخ منذ تأسيس المدينة" شهرة عظيمة في العصور القديمة.

3- أوكتافيو باث (1914-1998): شاعر وأديب وسياسي أميركي.

القطعة المجازية رقم 4:

جبل القاذورات

الفنان: داميان سانشيز أورتيغا[1]

اختيرت يوري هيريرا[2]، قائدة دورية ألفا، كأفضل شرطية مرور للعام 2011. في ليلةِ أحدٍ، حالَ فيها الأرق بينها وبين النوم، استذكرتْ الكابتن يوري هيريرا مناجاة «ماكبث» الشهيرة بأكملها، وهي تبدأ على النحو الآتي: «غدًا، وغدًا، وغدًا[3]»..

تَلت المقطع للمرة الأخيرة أمام المرآة تمام الساعة الخامسة وخمسٍ وعشرين دقيقة صباحًا، بينما كانت ترتب شعرها على شكل كعكة، وتثبتها بمجموعة من دبابيس الشّعر والمشابك. ثمّ وضعت صفّارتها بين أسنانها، ونفخت.

خرجتْ إلى الشارع وهي تبدو فاتنة لا عيب فيها. وبينما كانت تنعطف عند ناصية لاس أمابولاس (لا مابولا)[4] التقت بزميلتها الشرطية، فيفيان أبينشوشان[5]، مفاوضة الرهائن في دورية أوميغا.

1- داميان أورتيغا (1967): فنان مكسيكي معاصر. استهلّ مسيرته بالرسم الكاريكاتوري السياسي. بإحساسه المدموغ بالدعابة والسخرية يفكك أورتيغا الأشياء المألوفة واليومية، لصنع منحوتاته وأعماله التركيبية، مُغيّرًا من وظائفها وليكشف عن تجارب جديدة فيها والجَذب الكامن خلفَ كل مجسم والعالم اللانهائي داخله.

2- إشارة إلى يوري هيريرا (1970)، وهو عالم سياسي، ومحرر، وروائي مكسيكي معاصر.

3- مسرحية ماكبث/ شكسبير/ الفصل الخامس، المشهد الخامس/ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا: غدًا.. وغدًا.. وغدًا.. وكلّ غد يزحف بهذه الخُطى الحقيرة يومًا إثر يوم.. حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب.. وكلُّ آماسنا قد أنارت للحمقى المساكين الطريق إلى الموت والتراب.. ألا انطفئي يا شمعة وجيزة! ما الحياة إلا ظلّ يمشي.. ممثل مسكين يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح.. ثم لا يسمعه أحد.. إنّها حكاية يحكيها معتوه، ملؤها الصخب والعنف، ولا تعني أي شيء!

4- لاس أمابولاس (لا مابولا): Las Amapolas (La Amapola). بلدة صغيرة جدًا تابعة لبلدية سان دييغو أليخاندريا (ولاية خاليسكو) في المكسيك. يبلغ عدد سكانها أربعة أفراد فقط! وكلمة أمابولاس بالإسبانية هي الخشخاش والأفيون.

5- فيفيان أبينشوشان (1972): كاتبة ومحررة مكسيكية.

– ماذا لدينا اليوم، يا أبينشوشان؟ سألتها.

– إن المواطن المشتبه به في شارع موريلوس، في سيارة ذات سوابق جنائية، وهو متجه إلى «حديقة الحب[1]»، لقد وصلنا في الوقت المناسب يا شريكتي!

كانت الكابتن أبينشوشان أطول وأقوى من الكابتن هيريرا، ولكنهما كانتا مُتعادلتين في الشجاعة. في تلك اللحظة مرّ بالجوار تيرينس جاور[2] وروبن غالو[3]، مالكا حمام الساونا والبخار العمومي «عيدان الأكل والكسكسي»، ولوّحا للشرطيتين من على درّاجتيهما. رفعت الشرطيتان كتفيهما، ابتسمتا، وَردّتا التحية بالنفخ في صافرتيهما. وحينئذ عبرَ الطريق المشتبه به، وفتحَ نافذة سيارته النيسان تسورو بنية اللون، ورمى قنينة بلاستيكية فارغة باتجاهما. وقعت القنينة عند قدمي الكابتن أبينشوشان، فاستشاطت غضبًا، وركلتها إلى الشارع بأقوى ما تستطيع. بسبب راكبي الدراجة الودودين، أخفقتا مجددًا بإلقاء القبض على المُشتَبه به الذي كانَ يرمي عليهما قنينة كولا فارغة في كل صباح.

«حياتي جبل من القاذورات»، قالت أبينشوشان بنبرةٍ مسرحية بعض الشيء. بينما كانت الكابتن يوري هيريرا، وهي الأكبر سنًّا، مستعدة على نحو أفضل لمقاومة ضربات يومٍ آخر، مماثل لليوم السابق، والآتي، والذي سيأتي بعده، وتلتْ على شريكتها، بنبرةٍ قوية وجادة تُعلَّم فقط في أكاديمية الشرطة، ذلك المونولوج الشكسبيري الذي حفظتهُ في الليلة الفائتة.

أصغت الكابتن أبينشوشان بانتباه، وقد بدأ يخالجها شكٌّ مُبهم بأن شريكتها بدأت تفقد عقلها. بيد أنها سارعت إلى كبتِ هذه الفكرة عميقًا داخلها، وَصَفّرتْ مرتين في صفارتها، دلالة على امتنانها لتعاطف الكابتن هيريرا معها. ولمّا شعرتا بأنهما بحاجة إلى استراحة، قررت الكابتن هيريرا

1- **Parque del Amor**: حديقة الحُبّ الكائنة في ليما عاصمة جمهورية بيرو وأكبر مدنها.

2- **تيرينس جاور (1965)**: فنان ونحات كندي.

3- **روبن غالو (1969)**: أستاذ في اللغة والأدب والحضارة الإسبانية في جامعة برنستون، وشريك تيرينس جاور الفني.

والكابتن أبينشوشان تناول الفطور في كشك لبيع الجورديتا[1]، اسمهُ «جورديتا بانشو فيّا[2]»، يمتلكهُ شخص يُدعى تونو أورتونيو[3]، ويقع على ناصية إيزابيل الكاثوليكية[4]، آملتين أن ينقضي الصباح سريعًا.

القطعة المجازية رقم 5:

السّاق الاصطناعية

الفنان: أبراهام كروس فيليجاس[5] سانشيز

في يوم من الأيام ذهبَ أونامونو إلى المتجر لشراء بيض الدجاج. أونامونو لا يأكل البيض، ولكن زوجته التي لديها ساق خشبية، أرادت أن تطهو العجة، وطلبت من أونامونو الذهاب إلى متجر دانييل سالدانيا باريس[6] لشراء البيض. وطلبت منه أن يكون البيض قَطعًا أبيض اللون، وليس بنيًّا.

عادَ أونامونو من المتجر ومعه كيس ورقي مليء بالبيض البنيّ. عندما نظرت المرأة في الكيس، ولاحظت أن البيض لم يكن من اللون الذي تريده، صاحت: أيها الأحمق! وجعلتهُ يعود إلى المتجر لجلب البيض الأبيض.

عادَ أونامونو إلى المتجر، حيث اشترى هذه المرة بيضًا أبيض. ولمّا رجع إلى المنزل، وجد زوجتهُ نائمة على السرير. كانت المرأة قد تركت ساقها

1- جورديتا Gordita: كعكة ذرة صغيرة مقلية أو مخبوزة أو مشوية، وهي وجبة خفيفة شائعة في الشوارع في معظم أنحاء المكسيك.
2- بانشو فيّا (1878–1923): جنرال ثوري مكسيكي، يعتبر رمزًا هامًا من رموز الثورة المكسيكية.
3- تونو أورتونيو Antonio Ortuño (1976): روائي مكسيكي وكاتب قصص قصيرة.
4- إيزابيل الكاثوليكية (1451–1504): أو الملكة إيزابيلا الأولى ملكة صقلية وقشتالة وليون. كان لقراراتها آثار كبيرة في تاريخ إسبانيا، ففي عهدها انتهت حروب الاسترداد (سقوط الأندلس)، وأقرت بإجبار مسلمي ويهود إسبانيا على اعتناق المسيحية أو القتل أو الرحيل.
5- ابراهام كروس فيليجاس (1968): فنان بصري مكسيكي.
6- دانييل سالدانيا باريس (1984): شاعر وروائي مكسيكي.

الخشبية مسنودة على منضدة الكتابة ذات الغطاء المتحرك، كدأبها دومًا عندما تأخذ قيلولة منتصف النهار.

حينذاك، وضع كيس البيض على الأرضية المفروشة بالسجاد، وباستخدام الساق المزيفة، ضربها ست ضربات كي تصحو.

القطعة المجازية رقم 6:

الملاك

الفنان: ميغيل سانشيز كالديرون[1]

كان غييرمو فادانيلي[2] يطالع كتاب فينومينولوجيا الروح[3]، لصاحبه الذي يحمل ربعَ اسمه، خورخي غييرمو فيديريكو هيغل[4]، عندما دخلَ قزمٌ فجأة إلى مطعم «شنغهاي ستار» حيثُ كانَ جالسًا، وَسحبَ كرسيًّا، وقعدَ قبالته. عرّفَ الرجلُ عن نفسه بِاسم بوشكين[5]. طلبا من النادل بعض البيرة وطَفِقَ بوشكين يبكي. كانَ السبب من وراء دموعه، حسبما أخبرَ غييرمو فادانيلي، هو أن أباه كان مُتهتكًا. المفردة التي استخدمها هي донжуан[6]، وليس من المؤكد ما إذا كانت الترجمة «مُتهتّك» صحيحة.

بعد نصف ساعة، غادرَ بوشكين. وبعده مباشرة، دخلَ قزمٌ آخر إلى المطعم، وجاء للجلوس إلى الطاولة. دعاهُ غييرمو فادانيلي لتناول كأس من

1- ميغيل كالديرون (1971): فنان مكسيكي وصانع أفلام.
2- غييرمو فادانيلي (1960): كاتب مكسيكي. مؤسس مجلة موهو (التي يعرّفها بأنها نقطة التقاء أكثر منها وسيلة لنشر الأفكار).
3- فينومينولوجيا الروح: أو ظواهرية الروح، كتاب فلسفي من تأليف الفيلسوف الألماني جورج فيلهلم فريدريش هيغل. يصف الكتاب ثلاث مراحل جدلية عن حياة الروح، ويمكن ترجمة عنوانه الأصلي بالألمانية إلى ظواهرية العقل.
4- الاسم من وضع كاتبة الرواية.
5- إشارة إلى الشاعر والكاتب المسرحي والروائي الروسي ألكسندر بوشكين (1799-1837) الذي اعتُبرَ الشاعر الروسي الأعظم، ومؤسس الأدب الروسي الحديث.
6- **Донжуан**: بالروسية، دون جوان.

الشراب. بعدَ أن أخرجَ منديلًا من جيبه، ومسحَ الدموع المنهمرة على وجهه، وتمخط بصوت عال، قال القزم إن اسمه غوغول[1]، وأن سبب حزنه هو أنه عرفَ أن والده كان مُنحطًا. في هذه الحالة كانت الكلمة التي استخدمها هي вырождаться. وعلى ما يبدو كل شيء يشير إلى أن ترجمة الكلمة بِـ «منحط» صحيحة.

عندما غادرَ غوغول، جاء قزمٌ ثالثٌ إلى المطعم. وكما كان متوقعًا، كرّر نفس الروتين الذي اتّبعهُ القزمان السابقان، ثمّ جلسَ إلى الطاولة. وبينما كانَ يتمخط، أمعنَ فادانيلي فيه النظر ثم سأله: دعني أخمّن، اسمكَ هو دوستويفسكي، وأنت مبتئسٌ لأن زوجتك трутень (كسولٌ). حدّقَ فيه القزمُ مُتعجّبًا، وبعد أن تناول جرعة كبيرة ومطوّلة من البيرة، سألهُ: لم تقول هذا؟ وأجاب غييرمو فادانيلي بأنه догадался по горячности своег годоса / (خمّنَ ذلك من حرارة صوته)، وابتسمَ ابتسامة ساخرة بعض الشيء.

أنتَ مخطئ يا غييرمو. اسمي دانييل خارمس، وأنا أتمخط لأن لدي حساسية من غبار الطلع.

في تلك اللحظة اقتربَ النادل من الطاولة حاملًا سلّة من كعك الحظ الصيني. تناولَ غييرمو فادانيلي واحدة، وشَطَرها إلى نصفين، بالطريقة التي تكسر فيها البيضة. وتركَ القصاصة الورقية تسقطُ على الطاولة. ثمّ فضّها ببطء، وشرعَ يقرأ بصوت عال:

«هذه هي الطريقة التي يتخيل بها المرء «مَلاك التاريخ». يلتفتُ بوجهه نحو الماضي. حيثُ يبصر سلسلة من الأحداث؛ تتراءى لهُ كارثة تُراكِمُ الخراب فوقَ الخراب، وتُلقي به على قدميه. يودُّ الملاكُ لو يتوقف، لو أنه يوقظُ الموتى، لو يُعيد تجميع ما تَبعثرَ إلى أشلاء، لكن إعصارًا يهبُّ من السّموات، فإذا بجناحيه يتشابكان، مُشكّلين عقدةً من الأضواء الدُّرّية اللامعة، عقدة من فرط قوتها تجعل الملاك عاجزًا عن ضمِّ جناحيه. هذا

1- إشارة إلى الكاتب الروسي وأحد آباء الأدباء الروس **نيقولاي فاسليفتش غوغول** (1852-1809).

الإعصار يدفعهُ حتمًا نحو المستقبل، الذي يدير ظهره له، بينما يرتفعُ الحُطَام إلى عنان السماء من أمامه. إن ذلك الإعصار هو ما ندعوه بالتقدم». والتر بنيامين[1](*).

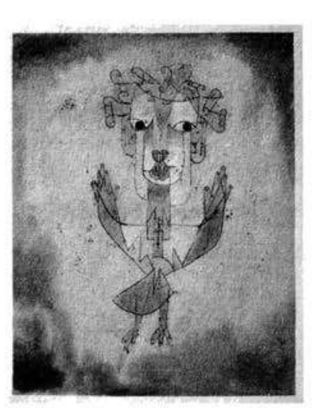
– هل وردَ في القصاصة الورقية كل ذاكـ؟ سألَ دانييل خارمس.

– نعم، أجابَ غييرمو فادانيلي.

– لا أصدقك! أجابه خارمس بغضب، وأطلقَ النار على فادانيلي بين عينيه. ثمّ انتزعَ كعكة من السلّة التي كان النادل ما يزال يحملها. وقامَ بمحاكاة حركات رفيقه الذي فارق الحياة، وذلكَ بأن كسرَ كعكة الحظّ إلى قسمين متطابقين، وأسقطَ القصاصة الورقية على الطاولة، ثمّ التقطها، وقبل إطلاق النار على نفسه، قرأ:

عندما تقضمُ براعم الخيزران بأسنانك، تذكّر الرجل الذي زرعها.

1- **تأويل والتر بنيامين للوحة «الملاك الجديد».**



* **والتر بنيامين (1892–1940)**: فيلسوف وناقد أدبي ألماني، من أشهر أعماله «مهمة المترجم» و«أطروحات حولَ مفهوم التاريخ». في الأطروحة التاسعة من أطروحاته حول مفهوم التاريخ وردت قراءته للوحة الرسام السويسري الألماني **بول كلي**، المُسمّاة «Angelus Novus / **آنجيلوس نوفوس/ الملاك الجديد**»، كانَ **بنيامين** قد اشترى اللوحة عام 1921، ورأى في الشخص المصوّر فيها «**ملاك التاريخ**» الذي يتذكر ماضي البشرية، ويشفق على مستقبلها.

القطعة المجازية رقم 7:

بونساي[1] شجرة الباوباب

الفنان: سام سانشيز دورانت[2]

قاسى ماريو ليفريرو[3] شهرًا عصيبًا. انقضى شهر سبتمبر تقريبًا ولم يتمكن من بيع بوليصة تأمين واحدة؛ على ما يبدو لم يعد هناك أحدٌ يخاف من الموت. عندما غادر مكتبه «التأمين في كل لحظة» يوم الجمعة، تمشّى إلى مَشتل السيد أليخاندرو ثامبرا[4]، واشترى شجرة باوباب مُصغّرة (بونساي). كانَ يشعر بالنّقص وانعدام الكفاءة، لدرجة أنه حاول الانتحار بِشنق نفسه من فرعٍ من تلك الشجرة الصغيرة. إلا أنه أخفق في ذلك.

القطعة المجازية رقم 8:

دمية الكلب المحشوّ

الفنان: ماوريتزيو كاتيلان[5]

قبل بضع سنوات، حاول ألفارو إنريكه[6]، سائق الحافلة على الطريق

1- **البونساي: Bonsai** شجرة مُصغرة، أو تقزيم الأشجار بطريقة التقليم الجذري، بحيث لا تتجاوز الشجيرة 60 سم. والبونساي بالأصل فنٌّ ياباني الغرض منه التأمل وممارسة متعة الجهد وليس إنتاج الثمار.

2- **سام دورانت (1961)**: فنان أميركي متعدد الوسائط تنطوي أعماله على قضايا اجتماعية وسياسية وثقافية.

3- **خورخي ماريو فارلوتا ليفريرو (1940- 2004)**: مؤلف وروائي من الأوروغواي. في رصيده ما يزيد عن العشرين رواية.

4- **أليخاندرو ثامبرا (1975)**: شاعر تشيلي، كاتب قصة قصيرة وروائي. نالت روايته الأولى ***Bonsai*** جائزة النقاد التشيليين لأفضل رواية عام 2006.

5- **ماوريتزيو كاتيلان (1960)**: فنان إيطالي اشتهر بتركيباته المثيرة للجدل. اشتهر بعمله «أميركا» وهو عبارة عن مرحاض مصنوع بالكامل من الذهب الخالص عيار 18 قيراط، ويرمز إلى فرط ثروة الولايات المتحدة.

6- **ألفارو إنريكه** (1969): روائي مكسيكي وكاتب قصة قصيرة وكاتب مقالات. وهو زوج فاليريا لويزلي صاحبة هذه الرواية.

M100، أن يدهس غدرًا سيدة عجوزًا مشلولة في أفينيدا ريفولوسيون (شارع الثورة). قضى في السجن فترة قصيرة ولكنها كانت فظيعة.

بعدَ إطلاق سراحه، التقيتهُ بعد ظهر أحد الأيام في حانة السيدة أبرامو «ليَكُن نور[1]»، وأخبرني بأنه في ذلك اليوم المشؤوم، استقلّ كاتب العدل خوان خوسيه أريولا[2] حافلة عند التقاء شارعي لوما بونيتا والجادّة الداخلية. وحالما رآهُ ألفارو إنريكه، عَلِمَ أن حضوره نذير شؤم. وحقيقة ما جرى أنه في المحطة التالية، رفعَ توءمان متماثلان ارتدى كل منهما قميصًا بأكمام طويلة، وعرّفا عن نفسيهما بِاسم أوسكار دي بابلو، وبيدرو دي بابلو؛ رفعا إلى الحافلة سيّدة على كرسيّ متحرك تحملُ كلبًا نائمًا بين ذراعيها. وتعاونا فيما بينهما على رفعها من الكرسي المتحرك، ثم أجلساها في الكرسي المجاور لكاتب العدل، وترجّلا من الحافلة بصمت. ظلَّ الكلب نائمًا كالطفل بين ذراعي السيّدة العجوز المترهلتين.مكتبة سُر مَن قرأ

بعدَ مُجمَّعين سَكنيين، طلبت السيدة العجوز إنزالها في المحطة التالية قائلة: قِف! وكانَ بانتظارها التوءمان الشابان نفساهما ذوا القميصين بالأكمام الطويلة، وكانا مُمسكين بِمقبَضي الكُرسيّ المتحرك. ارتقيا الحافلة، ثمّ رفعا السيدة العجوز، وبمجرد نزولهما من الحافلة وضعاها في الكرسي المتحرك من جديد، والكلبُ ما يزال نائمًا بهدوء. وبعد بضعة أبنية، لوّح للحافلة الرجلان نَفْساهُما، وبرفقتهما السيدة نفسها وما تزال في كرّسيها المتحرك. تكررت العملية السابقة ذاتها، وبعد مربعين سكنيين، طلبت السيدة التوقف مجدّدًا، وذلك بأن صَاحت: قِف!

وفي الأثناء، تبدّى الإنهاك على كاتب العدل، خوان خوسيه أريولا، وكان غير قادر على قول أو فعل أي شيء حيال هذا الموقف العبثي السخيف، الذي كان من الواضح أنه غير محتمل بالنسبة إلى السائق وإلى بعض الركاب.

في شارع بارانكا، استقلّ الحافلة السيد باكو جولدمان مولينا[3] والسيدة

1- «وقال الله: ليَكُن نُورٌ، فَكَان نور». (سفر التكوين 1: 3)

2- خوان خوسيه أريولا (1918-2001): كاتب مكسيكي شهير.

3- جولدمان مولينا (1954): فرانشيسكو جولدمان، روائي وصحفي أميركي. ويُعرف أيضًا باسم فرانشيسكو جولدمان مولينا، «فرانك» و«باكو».

غوادالوبي نيتل[1]. أخرجا كل منهما غيتاره وراحا يعزفان «لا غوانابانا». تجلّت ابتسامة طفيفة على وجه ألڤارو إنريكه. انعطفَ يمينًا باتّجاه شارع ريفولوسيون، وَطلبَ إلى باكو وغوادالوبي أن يعزفا «لا براخّا». وبينما كان باكو جولدمان يغني وغوادالوبي تداعبُ أوتار غيتارها، تكرر صعود ونزول السيّدة العجوز المشلولة وكلبها النائم مرة أخرى، بمساعدة التوءمين المشؤومين.

ثمّ ضاقَ ألڤارو إنريكه بهم ذَرعًا، وَما عادَ بوسعِهِ احتمال المزيد. فاضَ نصفُ الكوب الفارغ من صَبره «الإسبرطي[2]» الذي يُضرَب به المثل. عندما رأى التوءمين بالقميصين ذوي الأكمام الطويلة واقفين على ناصية شارعي ريفولوسيون وبيريوديزمو مثل تمثالي أبي الهول حاقدين، يحرسان السيدة في كرسيها المدولب وكلبها النائم المقرف، وهما يلوّحان للحافلة من جديد، قادَ حافلته مباشرة باتّجاههم أربعتهم. تمكّن التوءمان والعجوز، التي تبين أنها غير مشلولة، من تفادي الحافلة بإلقاء أنفسهم على جانب الطريق. إلا أن الكلب ماتَ في ذلك الحادث المؤسف.

القطعة المجازية رقم 9:

نوتة موسيقية على حامل ثلاثي القوائم
الفنان: فيرناندو سانشيز أورتيغا[3]

سوّى ماريو بيلاتين[4] وسيزر آيـرا[5] مِعطفيهما الأسوَدين، وَعدّلا

1- غوادالوبي نيتل (1973): كاتبة مكسيكية. صدر لها أربع روايات.

2- الصبر الإسبارطي: عُرِفَ عن مدينة إسبارطة أنها كانت مجتمعًا محاربًا في اليونان القديمة، وتمحورت الثقافة الإسبارطية حول الولاء للدولة والخدمة العسكرية، وبناء على ذلك كان الصبية الصغار يتلقون تعليمًا عسكريًا مكثّفًا، ويُدرَّبون على الصبر والانضباط والتحمّل. كما عُرِف عن الإسبارطي تقشّفه بالكلام.

3- إشارة إلى فرناندو أورتيغا (1971)، فنان مكسيكي معاصر.

4- ماريو بيلاتين (1960): روائي مكسيكي. من أعماله «صالون التجميل» و«فلوريس» و«الداما الصينية».

5- سيزر آيرا (1949): كاتب ومترجم أرجنتيني، يعتبر مثالًا على الأدب الأرجنتيني المعاصر. نشرَ آيرا أكثر من مئة كتاب قصير من القصص والروايات والمقالات.

نظّارتيّهما الشّمسيتين، وَنظرا بإمعانٍ في العلامة نُصب أعينهما. جَذَبا نفسًا عميقًا على نحو متزامن، واستهلّا بِعلامة سي الكبرى: «الربُّ يرعاني، فلا شيء يعوزني[1]»..

نِهاية المَجازات.

ولمّا فرغتُ من الإملاء، أعددتُ وجبة مكونة من الخبز والطماطم لي ولفوراجين، وقعدنا على كرسي الأكابولكو لمشاهدة التلفاز. أنت لا تعرف أبدًا متى يصنع المجتمع من الحبّة قبّة. كانت نشرة الأخبار تدقُّ ناقوس الخطر. الإبلاغ عن عملية سطو واسعة النطاق في معرض تابع لمصنع العصير. وكانت الشرطة قد ألقت القبض على مُشتبه به، لم تُفصِح عن اسمه بعد، ولكنه كانَ على صلة بالمصنع.كان الخوف على إل بيرو هو أول خاطر راودنا. من ثمّ الخوف على أنفسنا بعض الشيء. ولكن عندما هاتفته قالت زوجتهُ إنهُ في قيلولة. كنتُ على يقين من أنهم اعتقلوا سيدهارتا.

– وكنتُ على حقّ، أليس كذلك يا فوراجيني؟

– بلى، أيها الطريق السريع، لقد كنتَ محقًّا.

ومع ذلك، قررنا التخلّص من الأغراض بأسرع وقت ممكن. في تلك الليلة طلبنا من إل بيرو مساعدتنا في نقلها إلى ساحة الخردة التابعة للسيد إيبارغوينغويتيا[2]، الكائنة في شارع فيروكاريل(السكك الحديدية). حصلنا على مئة بيزو ثمنًا للأغراض.

– وأعتقد أنه بمقدوري الآن القول إني عشتُ بسعادة، أليس كذلك يا فوراجيني؟

– أعتقد ذلك أيها الطريق السريع.

إذن دَوّن هذا عندك، وَلنذهب للقاء بعض السيدات.

1- المزمور 23 – مزمور داوود.

2- إشارة إلى الروائي والكاتب المسرحي المكسيكي خورخي إيبارغوينغويتيا (1928–1983). من كُتبه «المَيّتات».

من يسرقْ بيضة يسرقْ ثورًا[1]

1- مثل فرنسي قديم.

الكتاب السادس

الإضمارات

إن كانت عبارة «مؤلف ويفرلي» تعني شيئًا آخر سوى «سكوت[1]»، فلسوفَ تكون عبارة «سكوت هو مؤلف ويفرلي» خاطئة، وهي ليست كذلك. وإن كانت عبارة «مؤلف ويفرلي» تعني «سكوت»، فسوفَ تكون «سكوت هو مؤلف ويفرلي» حشوًا، وهي ليست كذلك. لذلك، فإن عبارة «مؤلف ويفرلي» لا تعني «سكوت» ولا أي شيء آخر؛ أي أنّ «مؤلف ويفرلي» لا تعني شيئًا.

• برتراند راسل

عندما تعرّفتُ إلى الطريق السريع في البداية كان مريضًا وضعيفًا. كلما رأى انعكاسه في المرآة، كانَ يقول إنه أشبه بدجاجة في الفناء الخلفي، ثمّ يقوقِئ في وجهه في المرآة. في الواقع، كان الشَّعر القليل الذي لديه منتصبًا دائمًا للأعلى؛ وكانَ لديه ساقان هزيلتان معروقتان، وبطنٌ مستدير منتفخ. كانَ قد فقدَ أسنانه المزيفة الحبيبة، وعليه؛ كانَ الشيء العادي كالكلام مثلًا، إن لم يكن مستحيلًا، فهو معركة مستمرة في وجه الإذلال. بيد أن الطريق

1- السير والتر سكوت (1771–1832): الروائي والكاتب المسرحي والشاعر الإسكتلندي الشهير.

السريع كانَ رجلًا هيّنًا ليّنَ العريكة. لم يخفق يومًا بالاستيقاظ مبكرًا، في مزاج جيّد، من ثمّ كان يَضبطُ الراديو على إذاعة تَبثُّ موسيقى جميلة، وكانَ يُحضّرُ القهوة لكلينا. وكنتُ ألحقُ به إلى المطبخ بعد ذلك بقليل، على أهبة الاستعداد للإصغاء إلى قصصه، وتدوين الملاحظات.

عندما بدأ الطريق السريع برواية قصصه عليّ للمرة الأولى، ظننتُ أنه يعاني من الكذب القهريّ. ولكن بعد أن عشتُ معه، أدركتُ أن الأمر غيرَ متعلّق بالكذب ولم يتجاوز عين الحقيقة. كانَ الطريق السريع روحًا من تلك الأرواح الرحيبة الأبدية. كانَ حضوره في بعض الأحيان بمنزلة تهديد، وليس لأنه كانَ يمثّلُ تهديدًا حقيقيًا لأي شخص، ولكن لأنه، وبالمقارنة مع حريّته الجامحة، فإن جميع المعايير التي نعتمدها عادة لقياس أفعالنا تبدو تافهة. كان الطريق السريع ضاجًا بالحياة أكثر من الإنسان العادي. حتى الآن، بعد مماته، ثمّة أشخاص يعتقدونَ أنهم يلمحونَه وهو يمرُّ بسرعة، مُندفعًا نحو جهة ما، على دراجته التي حصلَ عليها من جناح جاور للدراجات أمام معمل العصير [الشكل رقم 1]. ويقول إل بيرو دومًا، إنه في بعض الأصباح، ومع بزوغ أول شعاع شمس، بالإمكان رؤية «الطريق السريع» على قمة إحدى التلال التي تحدّد حوض هذه الأرض القاحلة.

نسختُ قصصه، من ثمّ قام رفيقاي في السكن القديم بطباعتها في كتيبات صغيرة في مطبعتهما «الركن الثقافي» [الشكل 2]. لم يرها الطريق السريع قط، ولكنني متأكد من أنه كانَ سيفتخر بها. مقابل عملي ناسخًا، لم يمنحني الطريق القوتَ والسُّكنى فقط، لا بل التعليم أيضًا. كان يصطحبني للمشي يوميًا أو لركوب الدرّاجة في شوارع إيكاتيبيك، بما أنه كان على قناعة، بأنه بإمكاني ذات يوم أن أصير المرشد السياحي الأول في المنطقة. في البدء، بدت الفكرة حمقاء. إن كان ثمة تجسيد ماديّ للعدم في هذا العالم، فهو إيكاتيبيك دي موريلوس. ولكن مع الوقت، بدأتُ أوقنُ في تلك المسألة، فكما هو الحال مع كل شيء تقريبًا، كان الطريق السريع محقًّا. من خلال قصصه، صارت إيكاتيبيك صالحة للسُّكنى بالنسبة لي، لذا ربما، ذات يوم إن رويتُ هذه القصص، ستكون إيكاتيبيك مكانًا يزورهُ الناس.

يوم التقينا، وبعد أن أخذت أمتعتي القليلة من الشقة التي تشاركتها

مع «دارلينغ» و«آندرستاندِنغ»، قُدنا درّاجتينا إلى منزل الطريق السريع في ديزنيلاندِيا [الشكلان 3و4]. وكانَ مستودعه هو المكان الأول الذي دخلنا إليه. أرشدني إلى المكان كأننا ندخل معبدًا. تنقّل الطريق السريع صامتًا في أرجاء المستودع ببطء، وقد لاحَ على محيّاه أثر ابتسامة بلا أسنان. وكنتُ من خلفه على بُعد بضع خطوات. وبينما هو يشير إلى أركانٍ فارغة، راح يَصِفُ أشياء، لم يكن أيّ منها موجودًا في الواقع: مجموعة أسنان، بالطبع، وأيضًا خرائط قديمة، قطع غيار سيارات، دُمى روسية، صحف بأيّ لغة تتخيلها، عملات معدنية قديمة، مسامير، دراجات، أجراس، أبواب، أحزمة، سُترات، أحجار، وماكينات خياطة. قدّم لي جولة حماسيّة محمومة على ما أسماه مجموعته الكبرى من المقتنيات. من الصعب التحديد ما إذا كانت تلك الدقائق حزينة أم نورانيّة.

في وقت من الأوقات امتلك الطريق السريع مجموعة غنية ومتنوعة لا يمكن تصوّرها. كانَ رجلًا قد أحبَّ الأشياء المحسوسة بصدق. ومحبّته لها فاقت قيمتها المادية الحقيقية، إذ كانت قيمتها بالنسبة له تكمنُ، بطريقة ما، في الشيء الذي تضمنتهُ بِصمت. منذ سنٍّ صغيرة جدًّا انساقَ مع رغبته العارمة ليجمعَ بِدقّة وعِناية كل شيء اعتقدَ أنه قابل للجمع، من القطع المعدنية التي وجدها على الأرصفة، والأزرار التي سقطت من قمصان رفاقه في المدرسة، إلى أظافر والده وشعر أمّه.

في وقتٍ متأخر، ولكن ليس بعدَ فوات الأوان، عندما كان في سنّ الثانية والأربعين، اكتشفَ موهبته وصنعته الحقيقية في البيع بالمزاد العلني. في ذلك الوقت كانَ يعيش مع فلاكا منذ بضع سنوات، وكانَ ابنه سيدهارتا ما يزال رضيعًا يسيل لعابه. كانت حياته كلها ممتدة من أمامه. ولكن عندما ذهب الطريق السريع إلى الولايات المتحدة بموجب مِنحة لحضور دورة متقدمة في البيع بالمزاد العلني، تركتهُ فلاكا. في غيابه، تعرّفت السيدة على رجل كاثوليكي متعنّتٍ من «يوكاتان» من نفس طبقتها الاجتماعية، وانتقلت للعيش معه، وأخذت سيدهارتا معها. ثمّ ماتت بعد ذلك ببضعة أعوام، ولكنها تركت في وصيتها أن سيدهارتا يجب أن يترعرع في كنفِ زوج والدته. بتصوري أن الطريق السريع لم يكن يفقه في القانون كفاية لكي

يدرك أن وصية فلاكا ليس لها أي قيمة قانونية إطلاقًا. لدي انطباعٌ أن الطريق السريع لم يتعافَ قط من الضربة التي نجمت عن كل ذلك، على الرغم من أنه كان لديه مصادر عاطفية تكفيه لتنحية الألم جانبًا.

وعلى الرغم من كل التدريبات، والموهبة الفطرية في فنّ البيع في المزادات، عندما عادَ الطريق السريع إلى المكسيك، لم يحالفه الحظ في المهنة في حقيقة الأمر. تحصّلَ على قرضٍ لشراء قطعة أرض صغيرة في الحيّ الذي ولدَ فيه، وشيّدَ منزلًا ملوّنًا، ولكنه غير صالح للسكن تقريبًا، في شارع ديزنيلانديا. كانَ هذا منزل الطريق السريع لأكثر من عقدين من الزمان. بجانب المنزل، أنشأ الطريق السريع مستودعًا، وضعَ أعلاه يافطةً، مصنوعة حسب الطلب، كُتِبَ عليها: دار مزادات أوكلاهوما – ڤان دايك.

ظلّ الطريق السريع في منزله، عمليًّا ضمن منفىً طوعيّ، للعامين التاليين. كانَ يخرجُ فقط لابتياع الطعام المعلَّب من المتجر على ناصية الشارع، ولإحضار مجموعة متنوعة من الأغراض من الساحة لصاحبها جامع الخردوات الشهير خورخي إيبارغوينغويتيا [الشكل رقم 5]. في كلّ أسبوع، كان الطريق السريع يشتري، أو يبادل، أو ينبش الأشياء التي تسترعي انتباهه، وفي بعض أيام الآحاد، كانَ ينظّمُ بعض المزادات الخاصة في منزله. إلا أن هذه المساعي لم تتخذ طابعًا رسميًا تمامًا. كانَ حضور مزادات الأحد، إن حدثَ وحضرها أي أحد، من الجيران الفوضوليين جدًّا، والمتشردين والسُّكارى. لم يَشترِ أحد أي شيء، لذلك امتلأ المستودع تدريجيًّا بأغراض عديمة النفع. لا بدَّ أن هذا الوضع قد تسبب بإحباط للطريق السّريع أكثر مما كان يعلم هو بنفسه.

مرّ الوقت، وفي يوم من الأيام اتصل بسيدهارتا جارٌ حَسن النية من حيّ ديزنيلانديا، وهو كارلوس بيلاسكيث[1]، ليُخبرهُ بأن «فشار الطريق السريع قد فرقع». كانَ على آخرِ رَمق، إن جازَ التعبير. وعلى ما يبدو، ما عاد يغادر المنزل من أجل الطعام أو الأشياء. أحيانًا، يجلس في الشمس على كرسي أكابولكو موضوعًا في الخارج أمام باب المنزل. كانَ يمضي ساعات طويلة

1- كارلوس بيلاسكيث (1978): روائي وقاصّ مكسيكي.

هناك، ساكنًا، مُحدّقًا في الفراغ، وفي بعض الأحيان يُلمّع قطعة من مجموعته بقطعة قماش. وبحسبِ جارة أخرى، وهي لايا خوفريسا[1]، كانَت للطريق السريع هيئة شاحبة شِبه مُحتضِرة: «كانت عيناه مثل لَمبَتين كهربائيتين عاريتين، من نوع الفلورسينت الأبيض!» كانت أيامه معدودة.

سيدهارتا، وهو فأر الطموح من أسوأ نوع، رأى في ذلك فرصة مواتية للاستيلاء على مجموعة مقتنيات أبيه، وليس لأنه ظنَّ أنها قيّمة، وإنما لأنه اعتقدَ أنها فولكلورية بما يكفي لِخلقِ انطباعٍ جيّد. مثلَ معظم القيّمين، أرادَ هو أيضًا أن يكون له عمله الخاص، وأي مكان أفضل من ذلك للانطلاق منه؟ ولأنه عرفَ أنه لن يصلَ إلى أي مكان بمفرده، قرر التحدّث إلى الكاهن المحليّ. واقترحَ عليه إجراء مزادٍ علنيّ، من شأنه أن يعود على الكنيسة بنسبة معقولة. عندما علمَ بدورهِ بمحنة الطريق السريع، رأى الأب لويجي أمارا -كاهن كنيسة القديسة أبولونيا- في ذلك فرصة لِضرب عصفورين بحجرٍ واحد: جمع الأموال، ثمّ جمع الأموال. زارَ الطريق السريع ذات صباح، واقترحَ عليه تنظيم «مزادٍ علني مشترك». ثم تصافحا على نيّة الاتفاق.

قبل بضعة أيام من بدء المزاد، أعطى سيدهارتا للأب لويجي وصيّة كيما يوقعها الطريق السريع، ذكرَ فيها أن بطلنا سوف يورّثُ كل مجموعة مقتنياته لابنه. وقّع الطريق السريع على الوصية دون قراءتها صباح يوم المزاد، بينما كانَ ينتظرُ إشارة له في غرفة ملابس الكهنة بالكنيسة. ولن أعرف على وجه اليقين ما إذا كان مدركًا أنه بهذا التوقيع، كان يسلم حياته بأكملها إلى سيدهارتا. ولكن بعد التفكّر مليًّا في الأمر، فإنّ انطباعي هو أنه فعلَ ما فعل مُدركًا له، على نحوٍ ما. وهذا ما يفسّرُ الطريقة التهكمية اللافتة التي نظرَ بها الطريق السريع إلى عيني سيدهارتا مباشرة، لمّا بيعت جميع الأغراض في المزاد، وسألَ من الذي سيفتتح المزايدة عليّ وعلى أسناني؟

في الواقع، في اليوم السابق على لقائنا صباحًا للمرة الأولى، كانَ الطريق السريع قد اشتُرِيَ هو وأسنانه في مزادٍ علنيّ وبِسعرٍ منافس من قِبل ابنه سيدهارتا سانشيز توستادو. ثمة روايات مختلفة لما حدث بعد ذلك.

1- لايا خوفريسا (1983): كاتبة وروائية مكسيكية.

إحدى الروايات تقول إنه بعد المزاد، حقنهُ سيدهارتا بالبَنج، وعندما غطَّ الطريق السريع المسكين في نوم عميق طويل إلى أجلٍ غير مسمّى، أخذهُ إلى مستوصف أسنان، حيثُ خلعَ اثنان من الأطباء أسنانه الثمينة. وتزعمُ رواية أخرى، أنه عند انتهاء المزاد، ذهب الأب وابنه إلى مقصفٍ لتصفية حساباتهما، وفي ذروة السُّكر، وبينما كانَ سيدهارتا يحاول سحبَ والده إلى السيارة، ارتطمَ الطريقَ السريع بالأسفلت مرات عديدة حتى فقدَ أسنانه ببساطة. يبدو ذلك مُستبعدًا. ومع أن الطريق السريع رفَض دومًا إخباري بالقصة الحقيقية لذلك اليوم، ربما لأنه ببساطة لم يكن يتذكرها بوضوح، غير أني أعتقدُ أن الرواية الأولى هي الصحيحة: الطبيبان الشريران، بناء على أوامر من سيدهارتا الأكثر شيطنة وخبثًا، هما من خَلعا أسنانه.

ما هو مؤكد تمامًا، نظرًا لوجود إثبات عليه شريط فيديو مسجّل، أنه في مساء يوم المزاد، أودعَ سيدهارتا والده في إحدى الصالات في معرض خوميكس الفني. وعلى نحو أدق، ألقى سيدهارتا الطريق السريع في غرفة عُرِضَ على جدرانها الأربعة مقاطع فيديو أظهرت أربعة مهرجين يراقبونَ الرّائي بفتور تامّ، فقط راحوا يرمشون أو يتنهدون من حينٍ إلى آخر؛ وهي قطعة مفزعة إلى حدٍّ ما لكنها مؤثّرة للفنان ذائع الصيت أوغو روندينون [الشكل 6].

بعد أن تركَ أباه قبالة فيديوهات المهرجين المتخشّبين لروندينون، ذهبَ سيدهارتا إلى الغرفة حيثُ يُحتَفَظ بمعدّات الأمن السمعية والبصرية في المعرض، وشرعَ في إجراء محادثة مع أبيه عن بُعد، عبرَ أحد أنظمة مكبرات الصوت. «المحادثة» هي إحدى الطرق لوصفِ ما حدث؛ ذلك أنه سيدهارتا قد بذلَ قصارى جهده لتعذيب والده والتنكيل به، وسجّلَ ذلك، على الأرجح لاستخدامه في المستقبل. وكلّفه بالقيام بمجموعة من المهامّ الغريبة، كأن يبحث مثلًا عن دراسات حول الثورة الروسية والسيارة الفولكس فاجن البيضاء. لكنّ بطلنا كانَ مخلوقًا من أكثر العناصر صلابة. عندما تمكن أخيرًا الطريق السريع غير القابل للكسر من استجماع ما يكفي من القوة لمغادرة «غرفة الأشباح»، مثلما يشير إلى هذا المكان عادة كلما سردَ الحكاية، ركبَ درّاجة هوائية وانطلقَ في نور الشمس على امتداد ذلك الشارع الأسطوري، سونوروا أورينت، حيثُ تقاطعت أقدارنا لحسن الحظّ.

كانت الأيام القليلة الموالية، بعدما اكتشفَ أنه خسرَ كلّ شيء، صعبة على الطريق السريع. تردّى في صمتٍ مهيب، كسرهُ في خاتمة المطاف ليقول: «أعتقدُ أني صرتُ شخصًا مريعًا. في الحقيقة، بِتُّ كائنًا زاحفًا. هل تعلم أن الزواحف كائنات غبية لأنها تستخدمُ كامل قدرتها الدماغية تقريبًا في الشعور بالخوف؟» ألححتُ عليه لكي يحصل على طقم أسنان مؤقتة حتى يتمكن من تناول الطعام بشكل صحيح، ويتسنّى لنا بذلك البدء بنسخ سيرة أسنانه الذاتية. ومع أنه قاومَ في البداية، فإنه وافقَ أخيرًا، وشرعنا في العمل.

ولكن الطريق السريع لم يتعافَ تمام العافية، وكانَ يعيشُ حالةً من التشوّش الكئيب. في ذلك الوقت نفسه تقريبًا، انضمّ من تلقاء نفسه إلى مجموعة العلاج بِالسَّكينة لمرضى الأعصاب المجهولين، في شارع المفكرين المكسيكيين، إلى جانب ورشة البومة لتصليح الأسلحة النارية [الشكل 7]. انتهت الأسابيع الأربعة التي قضاها مع جمعية السَّكينة على نحوٍ سيئ ثم على نحوٍ حسن. فأمّا الجانب السيئ، فلأن اللقاءات الأولى شكّلت لدى الطريق السريع قناعة بأنه رجلٌ مريض، وهو ما كانَ كذلك، وكانَ مقتنعًا تقريبًا بحبسِ نفسهِ في ديرٍ كاثوليكي. وأما الجانب الحسن، فلأنه في أسبوعه الثاني هناك، التقى برئيسة نقابية مخضرمة، اسمها «لا إلفيس»، التي بعد سماعها قصة الطريق السريع أثناء جلسته الثالثة مع المجموعة، أقنعته بأنه لم يكن عُصابيًا، لكنه كانَ في الحقيقة رجلًا شريفًا نزيهًا، وسليمًا نفسيًا وذهنيًا؛ قد سَلَبَهُ ابنهُ النّذل الشقيّ حقّه. وأخبرتهُ بأنها رأت كومة من الأسنان معروضة في معرضٍ بجوار معمل العصير، كأنها عمل فنيّ لشخص ما، وحثّتهُ على اتّخاذ الإجراء اللازم. ههنا تنفس الطريق السريع الصعداء وشعرَ بأنّ سَاحتهُ بُرِّئت.

في اليوم الموالي، ذهبنا إلى المعرض الفني في المصنع، واسترجعنا ما هو حقّ له، بالإضافة إلى بعض الأغراض الإضافية التي اعتقدنا أنه يمكنه بيعها في مزاد ما في المستقبل. لم نفلح قط في تحقيق فكرة ذلك المزاد المستقبليّ، بيد أن الطريق السريع عثرَ على أسنانه واحتفظ بها، وتمكن من

تصنيعها في طقم أسنان على يد صديقه القديم لويس فيليبي فابر[1]. وفكّر في آخر الأمر بأنه سيزرع الأسنان زراعة فردية عندما يجمع مالًا كافيًا. ولكنه آنذاك، كانَ يرتدي طقم الأسنان حسبَ مزاجه. مما يعني، أنه كان يلبسه أحيانًا وأحيانًا لا يلبسه.

مع أسنانه الجديدة، استعاد الطريق السريع إرادته ليَحيا أشهره الأخيرة بسلام. في كلّ ليلة، كنا نقيم جلسات «تعليم الفنان فوراجيني» في بارات الحيّ. أعجبنا على وجه الخصوص بار اسمه سرّ الليل [الشكل 8]، حيثُ التقينا بمغنٍّ وكاتب أغان شابّ يدعى خوان سيريرول[2]، الذي شاركهُ الطريق السريع الأداء بضعة أسابيع، كل ليلة. رأيتهما في الليلة التي أدّيا فيها غناءً ثنائيًا مستوحى من أغنية جوني كاش الكلاسيكية «قاطع الطريق/ Highwayman»، وأتبعاها بأغنية سيريرول الرائجة في تلك الآونة «ميتانفيتا[3]». وعندما كان بار سرّ الليل على وشك الإغلاق، كان يسمح للطريق السريع بإجراء مزاد على قصصه. لقد كانَ في بار سرّ الليل أن وضعَ الطريق السريع أخيرًا حيّز التطبيق نظريتهُ المكتملة آنئذٍ حولَ طريقته المجازيّة الشهيرة، حيثُ لا تُباع الأشياء، بل القصص التي تَمنحها قيمةً وَمعنى. كانت القصص الرمزية بالنسبة إلى الطريق السريع، «مزادات إعادة تدوير جذرية لما بعد الرأسمالية من شأنها إنقاذ العالم من حالته الوجودية كحاوية قمامة للتاريخ».

في عروضه النهائية، الطريق السريع الذي لم يكن يفتقر إلى البراعة بأي حالٍ من الأحوال، تعلّم الإفادة من اللحظات التي كانت تنزلقُ فيها أسنانه خارجة عن إرادته، وذلك بأن يخرجها كلها من فمه. وكانَ يمسكها بين أصابعه مثلَ الصنوج المستخدمة في رقصة الفلامينجو، ووفقًا للمناسبة، كانَ يجعلها تتكلّم أو تغني وتروي قصصًا ساحرة عن الأغراض المفقودة التي شكّلت ذات يوم جزءًا من مقتنياته. توافدت أعداد متزايدة من الناس لرؤيته، وكانوا مفتونين بِمشهدِ طقم أسنان الطريق السريع السّحري؛ الآن ترونها، الآن لا ترونها، والقصص التي رواها وَباعها معها.

1- لويس فيليبه فابريه (1974): شاعر مكسيكي وكاتب مقالات.

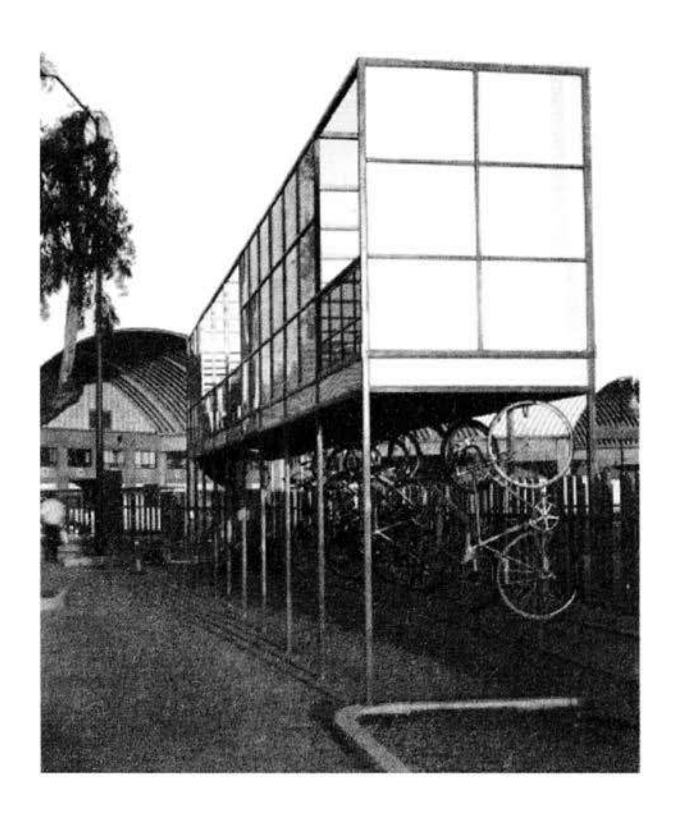
2- خوان سيريرول (1987): مغنٍّ وكاتب أغان مكسيكي.

3- Metanfeta بالإسبانية، وتعني ميثامفيتامين (منشط).

كانَ يبدأ دومًا بنفس الطريقة تقريبًا: اسمي الطريق السريع، وأنا أفضل بائع بالمزاد العلنيّ في العالم. يمكنني تقليد جانيس جوبلين بعد كأسين من الرّوم. أستطيعُ إيقاف بيضة على رأسها على الطاولة مثلما فعل كريستوف كولومبوس في القصة الشهيرة. وبمقدوري تفسير كعك الحظّ الصّيني. وأعرف كيف أعدُّ إلى ثمانية باليابانية: إتش، ني، سَن، شِي، غو، روك، شيتش، هاتشي. كما يمكنني أن أطفو على ظهري.

ماتَ الطريق السريع في نُزُل بوينس دياز، الباب المجاور للبار، بِرفقة ثلاث سيدات جميلات بعد إجراء مزادٍ مجازيّ انتهى، مثلَ عرض مكرر، بتقليد لجانيس جوبلين وهي تغني «ميرسيدس بينز». تلقيتُ مكالمة من البوّاب صباحَ يوم وفاته، وتوجهتُ على الفور إلى هناك بصحبة إل بيرو. لبّينا طلبه الأخير وذلك بأن نثرنا رماده عند أقدام الديناصورات المصنوعة من الألياف الزجاجية على الجزيرة المنصفة في أحدِ شوارع باتشوكا، مدينة الرياح الجميلة [الشكل9]. وفيتُ بوعدي، وفي الأشهر التي تلت وفاته كتبتُ سيرة أسنانه. وحرصَ إل بيرو على حصول ابن الطريق السريع على الملاحظة التي وجدناها على الطاولة بجانب فراش موته، تحت كأس الماء حيثَ نقعَ طقمَ أسنانه الاصطناعية:

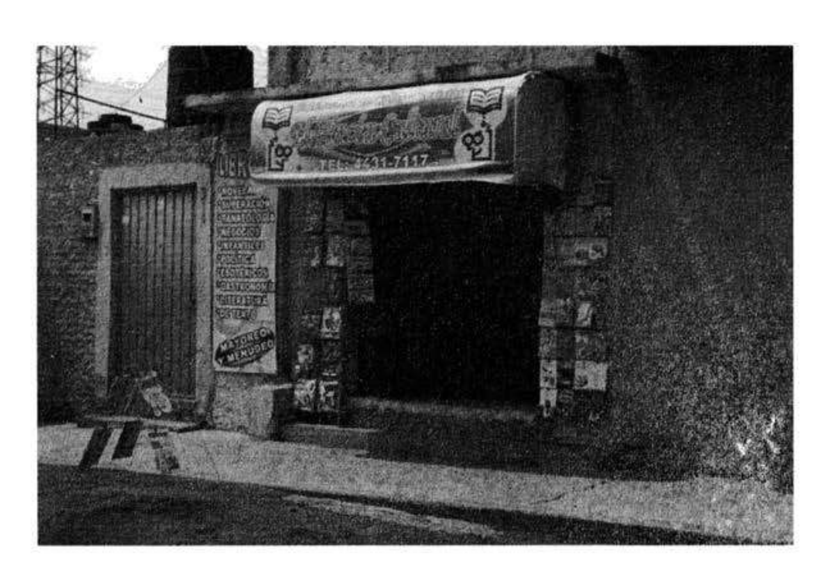
آسف لأني أوقعتكُ في ورطة،
ولأنك في السجن الآن،
ولأنني لم أكن أفضل الآباء.
كما أنني لم أتمكن من العثور
على كل الأشياء التي طلبتها مني.
ولكن هذه هي أسناني،
وكأس من الماء لك.
يمكنك أيضًا الاحتفاظ بكل مقتنياتي،
وبأسنان مارلين مونرو،
فهي زائفة على كل حال.



1. جناح جاور للدراجات الهوائية
© فرانسيسكو كوتشين

في كل مرة أرى شخصًا راشدًا يقودُ درّاجة، يزَايلني اليأسُ حيالَ مُستقبل الجنس البشريّ.

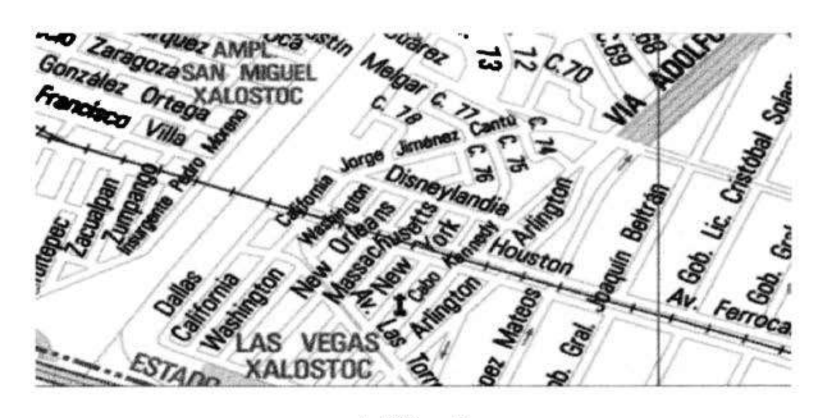
• هربرت جورج ويلز



2. الركن الثقافي
© خافيير ريفيرو وإل بيرو

دفاتر ملاحظاتي ملأى للأسف؛ هذا الدفتر بالعَجز، وذاكَ بانتظارٍ خاوٍ لا طائل منه. أصعب الانتظارات، وأشدّها إيلامًا انتظار المرء لذاته. إن كنتُ سأكتبُ شيئًا فيه، فسوف يكون الاعتراف بأنني أنا أيضًا انتظرتُ نفسي زمنًا طويلًا ولمّا أصِل بَعد.

• **خوسيفينا فيثينس**

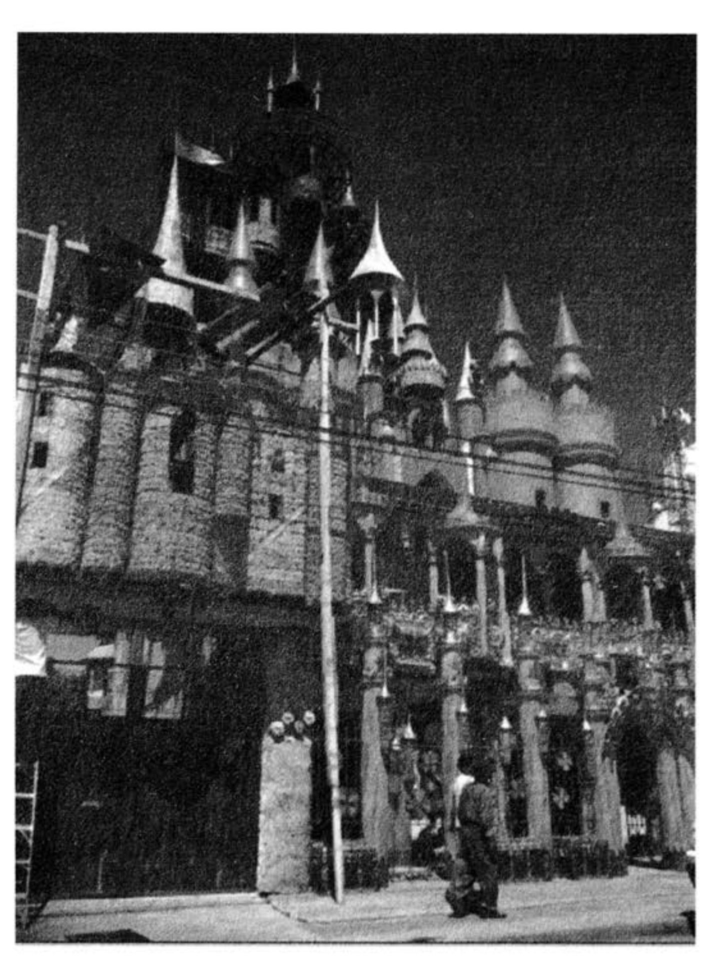


3. ديزنلانديا
Guía Roji ©[1]

الأشياء في حدّ ذاتها غير مقبولة أو باردة، وغالبًا ما تُرضي بالتقليد.

• وليام هازليت

1- **Roji's Guides**: شركة رسم خرائط مقرها في مكسيكو سيتي.



4. منزل الطريق السريع
© فاليريا لويزلي

تُقدَّم ديزني لاند على أنها مُتخيّلة، لحملنا على الاعتقاد أنّ الباقي واقعيّ.

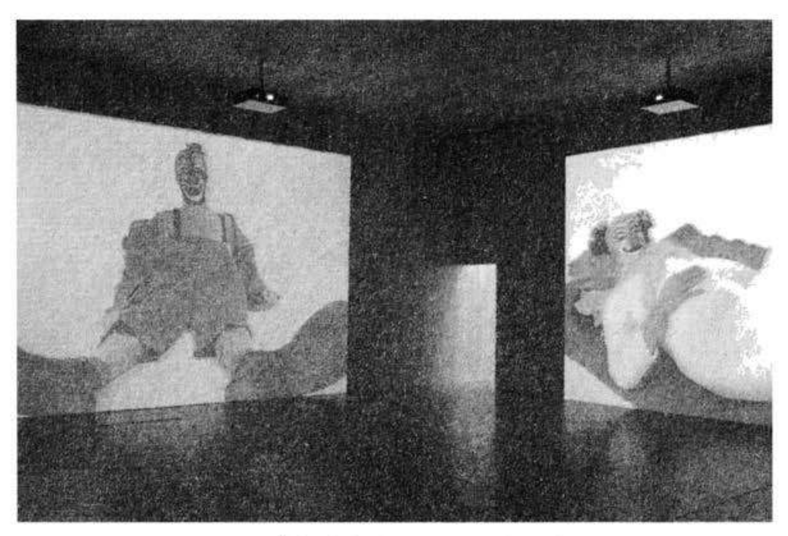
• جان بودريار



5. ساحة الخردة في إيكاتيبيك
© خافيير ريفيرو وإل بيرو

إن اللغة الإسبانية ثوب زفاف قديم ورثناه عن أسلافنا، ونحنُ ملزمون بالحفاظ عليه وعدم المساس به.. لكنَّ أثواب الزفاف العتيقة صالحة فقط لارتدائها ورؤية أنفسنا مثلَ هياكل عظمية. من الأفضل بكثير قصّها، وتفصيل القمصان منها بدلًا من إبقائها في كُرات النفتالين.

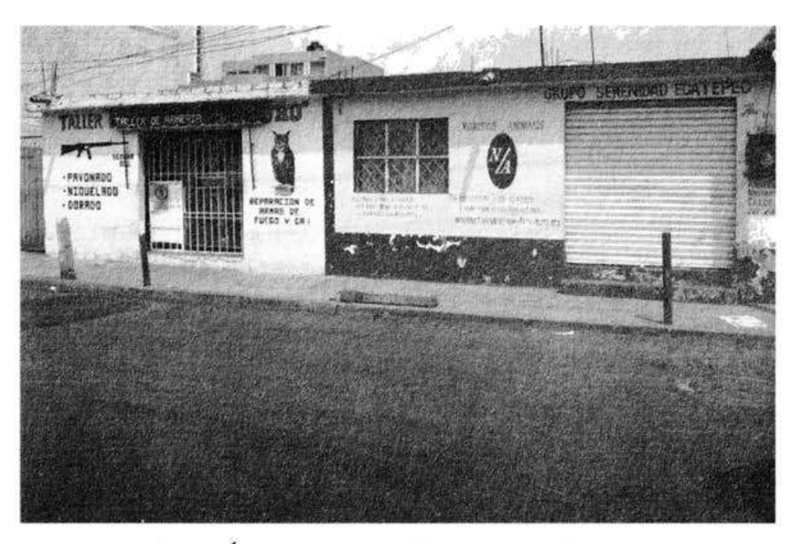
• خورخي إيبارغوينغويتيا



6. كيف السبيل للخروج من هذا المكان؟ أوغو روندينون.
© مجموعة خوميكس، المكسيك.

جعلني «فانشيول» أرى أن القوّة المُسكِرة للفنّ أكثر فاعلية من أي قوى أخرى لحجبِ أهوال الهاوية؛ حتى بمقدور هذا العبقري تمثيل الكوميديا بينما يقفُ على حافة القبر، بفرحٍ يمنعه من إبصار ذلك القبر، تائهًا كما في الجنة، التي ترفض الاعتراف بأي فكرة عن الموت والدمار.

• شارل بودلير



7. جمعية العصابيين المجهولين، وورشة تصليح الأسلحة النارية
© خافيير ريفيرو وإل بيرو

إن وهن الأعصاب/ هِبة جاءتني مع باكورة أعمالي.

• روبين داريو



8. سرّ الليل
© خافيير ريفيرو وإل بيرو

إن الأصالة ليست سوى تقليد حكيم. أكثر الكُتّاب أصالة وابتكارًا استعارَ أحدهم من الآخر.

• فولتير



9. الشريط المنصف في شارع باتشوكا وديناصورات الألياف الزجاجية
© بولكي [1]

أنت لا تأخذ شيئًا معك عندما ترحل.

• خوسيه ماريا نابليون

1- **بولكي**: Pulque شراب مكسيكي تقليدي مُسْكِر.

الكتاب السابع

التسلسل الزمني

بقلم كريستينا ماكسويني

1938 الرئيس لازارو كارديناس يُعلن عن تأميم احتياطيات النفط في المكسيك.

السابع من مايو 1945 الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها في أوربا.

1945 صدور كتاب برتراند راسل «تاريخ الفلسفة الغربية».

حوالي عام 1945

ولادة غوستافو سانشيز سانشيز، المعروف باسم «الطريق السريع»، في باتشوكا، مدينة الرياح الجميلة.

وانتقال عائلته للإقامة في إيكاتيبيك دي موريلوس.

1940 تَدنّي الإنتاج في شركة الصَّهر والتّكرير والتَّعدين الأميركية في باتشوكا، ما تَسبب في مُغادرة العديد من السُّكان بحثًا عن فرص عمل.

حوالي 1945 انتقال لوحة *بول كيلي* **«الملاك الجديد»** إلى رعاية ثيودور أدورنو، بعد انتحار مالكها والتر بنيامين في «بورتبو».

1945 مرور خمسين عامًا على انطلاق السيد هوبدرايفر في جولة على الدراجة الهوائية في جنوب شرق إنكلترا في رواية هربرت جورج ويلز «عجلات الفرصة».

1950 ڤيرجينيا وولف تنشرُ مقالتها «غاز» التي رَوت فيها تفاصيل

تعرّضها لقلع عدّة أسنان ما بين عامي 1922 و1923 ضمن «سرير موت الكابتن ومقالات أخرى».

1948 الذكرى المئوية لميلاد عالم المنطق والفيلسوف الألماني غوتلوب فريجه.

1954 مولد الكاتب فرانسيسكو غولدمان في بوسطن، ماساشوستوس.

1956 خوليو كورتاثار يتفكّرُ في تحوّل السَّمندل (قنفذ البحر) المكسيكي في جاردن ديه بلونت / حديقة النباتات في باريس، في قصته القصيرة «Axolotl»القنفذ البحريّ.

حوالي سنة 1953

الطريق السريع يستهلّ أول وظيفة له في كشك روبن داريو للجرائد، ويبدأ بجمع ماصّات الشراب.

1951 رواية سيدهارتا لصاحبها هيرمان هيسه تُنشَر للمرة الأولى في الولايات المتحدة، وتُسهِمُ لاحقًا في إلهام الجيل «الهيبّي».

1955 خمسون عامًا منذ أن قال ميغيل دي أونامونو، لألفونسو الثالث عشر، لدى استلامه الصليب الأعظم للنيشان المدني لألفونسو العاشر الحكيم: «يُشرّفني، يا صاحب الجلالة، أن أتسلّمَ هذا الصليب، الذي أستحِقه عن جدارة».

1957 دار بنغوين تُصدِر ترجمات روبرت غريفز «القياصرة الاثنا عشر» لِلمؤرخ الروماني سوتونيوس.

1962 الذكرى المئوية لِنشر أول خمسين قصيدة نثرية بقلم تشارلز بودلير «سَأم باريس»، المتضمنة قصّة الموت البطولي لمهرّج البلاط فانشيول.

1962 في السيرة الذاتية التي كَتَبتها عن روبرت دي مونتسكيو، تذكرُ كورنيليا أوتيس سكينير بأن مارسيل بروست كانَ في الغالب يقلّد ضحكة مونتسكيو، وعادته في عدم إظهار أسنانه.

1965 بدء العمل في تشييد أول مصنع سيارات فولكس فاجن في المكسيك.

1962 تصنيع دفاتر Scribe للمرة الأولى في المكسيك.

1966 مرور خمسمئة وخمسين عامًا على اكتشاف بوغيو براتشيوليني نُسخة من كتاب كينتيليان «معاهد البلاغة/ الخطابة (أوريتوريا)» في برجٍ قديم في دير سانت غال في سويسرا.

1967 مغنّي الريف الأميركي ليروي ڤان دايك يلعب دور البطولة في فيلم What Am I Bid?

1968 من المحتمل أنها الذكرى الخمسون لابتكار دونالد لاو «كعك الحظّ الصيني» في لوس آنجلس.

الثاني عشر من أكتوبر 1968 افتتاح الألعاب الأولمبية في مدينة مكسيكو.

1968 مولد الفنان المتعدد الوسائط دوغ آيتكن في ريدوندو بيتش، كاليفورنيا.

1966

توظيف الطريق السريع حارس أمن في مصنع خوميكس للعصير في إيكاتيبيك دي موريلوس.

ويستمرُّ في تجميع الأشياء.

1967 فرقة البيتلز تطلق ألبومها «الرقيب بيبر ونادي القلوب الوحيدة» وقد صمّم غلاف الألبوم بيتر بليك وجان هاوورث.

1967 صدور كتاب سول ليويت «نصوص عن الفنّ المفاهيمي»، عن دار آرتفورم.

1967 الذكرى المئة والخمسون لِنشر «الدائرة المستديرة»، وهي مجموعة مقالات من تأليف ويليام هازليت.

الثاني من أكتوبر، 1968 ارتكاب مجزرة بِحقّ الطلاب المحتجين في ميدان تلاتيلولكو، في مكسيكو سيتي.

1970 ولدَ الكاتب والمحرر الأميركي المكسيكي ديفيد ميكلوس في سان أنطونيو في ولاية تكساس.

1971 أربعمئة سنة على اعتزال ميشيل دي مونتين في قصر أبيه، بعدما سَئِمَ من الحياة، وكانَ في سنّ السابعة والثلاثين.

1971 ميلاد كاتب المقال والشاعر والمحرر لويجي أمارا في المكسيك.

1971 مولد ميغيل كالدريرون، طفل الفنّ المكسيكي الرهيب، في مكسيكو سيتي.

1973 استقالة خورخي لويس بورخيس مِن منصبه بوصفهِ مديرًا للمكتبة الوطنية في بوينس آيرس، بعدما حصدَ أول جائزة من جوائز ألفونسو رييس الدولية.

1973 الذكرى المئوية لِنشر السيرة الذاتية لجون ستيورات ميل، التي تحتوي على تعليقات حول كيفية تأثير كينتيليان على فِكره.

الثاني من يوليو 1976 تغيير اسم مدينة «سايغون» الفيتنامية إلى «مدينة هوشي منّه».

1976 افتتاح مؤسسة فولتير في جامعة أكسفورد.

1978 ميلاد كارلوس بيلاسكيث، كاتب الأدب الشمالي المكسيكي، في ولاية كواويلا، المكسيك.

في أوائل السبعينات المؤلف الإسباني إنريكه بيلا ماتاس يقرأ عن الفنان ريمون روسيل للمرة الأولى في أعمال مارسيل دوشامب.

1970 مرور مائتي عام على صدور أول ترجمة أكاديمية لكتاب بلوتارخ «حيوات متوازية» من لغته الأصلية اليونانية إلى الإنكليزية.

1 أكتوبر 1970 جانيس جوبلين تُسجّلُ «ميرسيدس بينز» في استديو «صوت الغروب» في لوس آنجلس.

1971 مرور ما يقارب 1600 عام منذ أن صلى الشاب أوغسطين أسقف هيبون: «امنحني العفاف والعِصمة، ولكن ليس الآن».

1971 ميلاد الفنان المختص في الفن الثلاثي الأبعاد فرناندو أورتيغا في مكسيكو سيتي.

1971 نشر الجزء الأول من مؤلّف آلان كابرو «تثقيف غير الفنان / The

Education of the Un – Artist» ضمن كتابه «مقالات حول ضبابية الفنّ والحياة»، في مؤسسة آرت نيوز 69. وفي عام 2011 قام المؤلف والشاعر المكسيكي دانيال سالدانا باريس برفع مقال كابرو إلى موقع Scribd الإلكتروني.

1974 مولد الشاعر وكاتب المقال والمحرر لويس فيليبي فابر في مكسيكو سيتي: برج الحوت، طالع برج الميزان، القمر في برج الحمل.

1957–1982 خمسون عامًا على النشر المتسلسل لرواية ألكسندر سيرغيفتش بوشكين الشِّعرية «يفغيني أونيغين».

1976 الذكرى السنوية الثلاثمئة والخمسون لوفاة فرانسيس بيكون، أبي التجريبية، الذي أُصيبَ بالتهابٍ رئويّ بعد إجراء تجربة في الآثار المترتبة على تجميد اللحوم، التي تضمنت حشوَ دجاجة بالثلج.

الخامس عشر من إبريل 1980 عشرات الآلاف ينضمون إلى موكب تشييع جان بول سارتر إلى مدفنه في مونبارناس.

1982 الذكرى المئوية الثانية لِنشر كتاب جان جاك روسّو «أحلام يقظةِ جوّال منفرد».

1982 في مقدمة مجموعة قصص لِروبرت فالسر، تُقارن سوزان سونتاغ نثرَ فَالسر بِفنّ بول كيلي.

حوالي العام 1980

ترقية الطريق السريع إلى منصب مدير الأزمات.

وبدأ في جمع الدورات التعليمية.

1980 مولد بابلو دوراتي، محرر موقع ليتراس ليبرس، في مكسيكو سيتي.

1981 اكتشاف كويكب، وتسميته 3453 دوستويفسكي.

1982 في كتابه «فيتغنشتاين في القواعد واللغة الخاصة» يعرضُ شاول كريبك «كريبكنشتاين»، وهو شخصية مُتخيَّلة تعتنق آراء مستندة إلى كتابات فيتغنشتاين.

1983 الكاتب المسرحي والقاصّ والروائي خورخي إيبارغوينغويتيا يُوارى الثّرى في حديقة فلورنسيو أنتيلون، تحت لوحةٍ كُتِبَ عليها: «هنا يرقدُ خورخي إيبارغوينغويتيا في حديقة جده الأكبر الذي قاتل ضد الفرنسيين».

الخامس والعشرين من يونيو 1984 وفاة ميشيل فوكو عن عمر يناهز السابعة والخمسين في مشفى «بيتي سالبتريه» في باريس.

1984

زواج الطريق السريع من فلاكا.

1983 الذكرى المئوية الخامسة على صدور كتاب يعقوب دي فوراجيني «الأسطورة الذهبية»، مطبوعات كاكستون، تروي قصص حياة القديسين.

1984 المغنّي المكسيكي خوسيه ماريا نابليون، ويُدعى غالبًا شاعر الأغنية، يُطلق أغنيته Nunca cambies / لا تتغيري أبدًا.

19 سبتمبر 1985 زلزال عظيم في مكسيكو سيتي خلّف وراءه ما لا يقلّ عن عشرة آلاف قتيل.

1986 جان بودريار يكتبُ «أميركا»؛ سيرة تروي عن سفريّاته في الولايات المتحدة.

19 سبتمبر 1985

ولِدَ سيدهارتا سانشيز توستادو.

سبتمبر 1985 «Highwayman / قاطع الطريق» تتصدّر قوائم موسيقى الريف الأميركي.

1985 كارلوس فوينتيس ينشر «الغرينغو العجوز».

8 حزيران 1987 مولد المغني وكاتب الأغاني خوان سيريرول –جوني كاش المكسيكي– في مكسيكالي. تضمّن ألبومه الثاني «Clonazepam Blues».

1987 الكاتب المكسيكي ماريو بيلاتين يسافر إلى كوبا لدراسة كتابة السيناريو السينمائي.

1987-1986

الطريق السريع يحضر دورة تدريبية في المزاد العلني، أعطاها لهُ ماستر أوكلاهوما.

ويلتقي ليروي ڤان دايك في مدرسة ميسوري للمزادات.

فلاكا تهجر الطريق السريع، وتأخذُ سيدهارتا معها.

1987 الكاتب المكسيكي غييرمو فادانيلي يعيش في برلين لمدة سنة ويتفاجأ لدى اكتشافه أن البيرة لا تُقدَّم باردة هناك.

تموز من عام 1988 حلول الذكرى المئوية الأولى لإصدار الطبعة الأولى من ديوان روبين داريو «آزول».

1989 قصة خوسيفينا فيثينس القصيرة «بيتريتا/ Petrita» تُنشَر بعد مماتها، والقصة مُستَقاة من لوحة فنية بعنوان «البنت الميتة» كانَ قد أعطاها إياها الرسّام المكسيكي خوان سوريانو.

2000-1988

الطريق السريع يغدو بائعًا ناجحًا في المزادات العلنية، ويُسافرُ كثيرًا.

ويبدأ بتطوير أسلوبه المجازي في فن المزاد العلني.

1989 معرض يوكو أونو لينون الاستذكاري يُقام في قسم من أقسام متحف ويتني.

1991 الذكرى السنوية الستمئة والخمسون على تنصيب بيترارك شاعر البلاط الأول منذ العصور الكلاسيكية القديمة.

1992 سام ديورانت يقيمُ معرضه المنفرد الأول في غاليري بليس باسادينا.

1995 الذكرى السنوية الثلاثمئة لوفاة خوانا إينيس دي لا كروث، الذي قيلَ إن كتاباته أظهرت تأثير البلاغة التقليدية لأرسطو وكيتيليان وأفلاطون.

1991 دار Serpent's Tail تنشر ترجمة سوزان باسنيت لكتاب مارغو جلانتز «شجرة العائلة: رواية مصوّرة في الولايات المتحدة».

3 أغسطس 1992 مرور خمسمئة عام على انطلاق كريستوف كولومبس للعثور على منفذٍ من الغرب إلى الشرق، واكتشفَ بالصدفة جزر الكاريبي.

1998 الذكرى المئوية الثانية لِنشر قصيدة تشارلز لامب «وجوه قديمة مألوفة»، يصفُ فيها يومَ فزعه.

حوالي عام 1998 فاليريا لويزلي البالغة من العمر خمس عشرة سنة تشتري نسخة من كتاب سرخيو بيتول Vals de mefisto من متجرٍ للكتب في سان كريستوبال دي لاس كاساس، وتتخيّله على أنه كاتبٌ ميتٌّ من أوروبا الشرقية أو من روسيا.

27 و28 أكتوبر 1999 دار كريستيز للمزادات تُقيمُ مزادًا علنيًا للممتلكات الشخصية لمارلين مونرو، بالإضافة إلى مجموعة مكوّنة من أحد عشرَ قدحًا من أقداح الصودا المكسيكية المتنوعة.

عام 2000 قرابة 2400 سنة على انزواء الكاتب المسرحي اليوناني يوربيديس في كهفٍ في جزيرة سلاميس لكتابة مسرحيّاته التراجيدية، وكان يصوّر الشخصيات الأسطورية أشخاصًا عاديين.

3 ديسيمبر 2001 وفاة المكسيكي كاتب القصة القصيرة التجريبية خوان خوسيه أريولا.

2002 قُدِّرَ عدد المكسيكيين غير الشرعيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة بخمسة ملايين ونصف مليون نسمة.

2002 الفنان التشكيلي تيرينس جاور يُشيّدُ «جناح الدرّاجات الهوائية» على أرضية مؤسسة/ مجموعة خوميكس في إيكاتيبيك، مكسيكو سيتي.

2003 أولافور إلياسون يمثّل الدنمارك في معرض بينالي البندقية.

2004 كاتبة المقال والقصة القصيرة فيفيان أبينشوشان تستمدّ الإلهام من قطعة فنية من ورق الإستنسيل في بوينس آيرس كُتِبَ عليها: «اقتل رئيسك في العمل، واستقِل».

حوالي عام 2000

الطريق السريع يشتري أسنان مارلين مونرو من مزاد علني في ميامي.

2000 مرور قرابة ثلاثة آلاف عام منذ أن زرعَ قدموس ولدَ تيليفاسا سنّ تنين، ودُهِشَ لدى رؤيته محاربين مسلّحين ينبتونَ من الأرض.

2000 الأمم المتحدة تطلقُ الأهداف الإنمائية الثمانية للألفية التي يتعيّن تحقيقها بحلول عام 2015.

2002 الذكرى المئة والخمسون لوفاة نيكولاي فاسيليفتش غوغول.

2002 مضيّ ما يقارب ألف وتسعمئة سنة على كتابة تاسيتوس «حوار الخطباء».

2004 «الرواية المضيئة» للكاتب الأوروغُوبانِيّ ماريو ليفريرو تُنشَر بعد وفاته، تتضمن مقدمة من 450 صفحة تسردُ كيفَ أنفقَ الكاتب المنحة التي قدمتها له مؤسسة غوغنهايم.

2005 مئة عام على ولادة الكاتب الروسي العبثي دانييل خارمس مرتين؛ يزعمُ الكاتب أن والده والقابلة دفعاه إلى الرحم مرة أخرى حينما خرجَ قبل موعده بأربعة أشهر.

2006 رواية «بونساي» للكاتب التشيلي أليخاندرو زامبرا تَصدر في إسبانيا عن دار النشر «أناغراما».

2007 شروع الناقد المكسيكي غييرمو شيريدان بكتابة مدوّنته «سجل الوقائع» في موقع ليتراس ليبرس.

2007 يوري هيريرا – غوتيريز يغدو محرّر المجلة الأدبية «إل بيرو».

2009 افتتاح «حديقة الديناصورات» في متحف «El Rehilete» في مدينة باتشوكا.

2010 الكاتب كارلوس يوشيميتو تَصِفهُ المجلة الأدبية «غرانتا» بالقول: «بيروفيّ ذو أصول يابانية يعيشُ في بروفيدنس، رود آيلاند، ويكتبُ عن البرازيل».

2009 «سيكستو بيزو» تنشرُ رواية إيميليانو مونجي «الموت عن ظهر قلب».

2010 في سنّ السابعة والعشرين، أثناء تواجدها في ولاية ويسكونسن، تتعلم الكاتبة المكسيكية لايا خوفريسا ركوب الدراجة الهوائية.

الطريق السريع بشتري قطعة أرض في شارع ديزنيلانديا، ويعيش في عزلة. كما أنه واصلَ جمع التذكارات المحلية.

2005 الذكرى المئوية لنشر مقالة غلبرت كيث تشيسترتون «قطعة من الطبشور».

13 أكتوبر 2006 مائتا عام منذ أن رأى الفيلسوف الألماني «جورج فيلهلم فريدريش هيغل» نابليون يتجوّل في شوارع «يينا».

2006 صحيفة ريفورما تختار رواية «El buscador de cabezas» من تأليف أنطونيو أورتينيو، المولود في غوادالاخارا، كأفضل رواية للعام تظهر للمرة الأولى.

2007 قطب الاتصالات المكسيكية كارلوس سليم يُعتبر أغنى رجلٍ في العالم.

2008 في مقالته «فنّ العيش في الفنّ»، يذكرُ الكاتب والناقد الأرجنتيني آلان بولز أنه يمكن فهم الأدب التخيّلي على أنه: «خريطة قائمة على الصدف والاختلافات».

29 يوليو 2010 أسنان وينستون تشرشل الاصطناعية «المنقِذة للعالم» تُباع بقيمة 15,200 جنيه إسترليني في مزاد علني في نورفولك، إنكلترا.

2010 روبن غالو ينشر «مكسيك فرويد: في براري التحليل النفسي».

2010 الفنان المكسيكي دميان أورتيغا يبتكرُ كل يوم عملًا فنّيًا جديدًا ولمدة شهر، تحضيرًا لمعرضه في غاليري باربيكان للفنون.

2011 الفنان التصويري أبراهام كروز فيليغاس يُشكّلُ «عملًا تركيبيًّا ذاتيًّا»، مؤلّفًا من فضلات الأغنام وكتل الشعر في متحف تيت موديرن/ Tate Modern.

2012 دار كريستيز للمزادات العلنية تبيع في مزاد علنيّ لوحة الفنان آندي وارهول المطبوعة بالشاشة الحريرية «القديسة أبولونيا: لوحة واحدة من أصل أربع لوحات للقديسة».

27 أبريل 2012 وفاة ديفيد وايس، نصف الثنائي الفني فيشلي/ وايس، عن عمر يناهز السادسة والستين.

يونيو 2012 خافيير ريفيرو ينشر صورة مع الشرح الآتي: «كيتي تُصحح التجارب المطبعية، جان بول سارتر»، في مدوّنته «كُتّاب وقطط».

2013-2011

إقامة مزاد من نمط القطع المكافئ (المجازيّ) في كنيسة القديسة أبولونيا.

الطريق السريع يقضي ليلته في «غرفة الأشباح».

ويلتقي الكاتب الطامح يعقوب دي فوراجيني، ويقترح أن يكتب الأخير سيرة أسنانه الذاتية.

الطريق السريع يسترجع أسنانه.

نوفمبر 2011 متحف مانهاتن «غوغنهايم» يصفُ الفنان الإيطالي صاحب النزعة «الواقعية المفرِطة» ماوريتزيو كاتيلان بأنه فنان استفزازي ومخادع أو جوكر.

مارس 2011 جريمة مقتل ابن الشاعر خافيير سيسيليا تؤدي إلى احتجاجات حاشدة في أرجاء المكسيك ضد أعمال العنف المتصلة بالمخدرات.

2011 مقالة معنونة بِـ «العقل الموسيقي» للكاتب الأرجنتيني ذي الإنتاج الغزير سيزر آيرا تظهر في مجلة ذا نيويوركر.

2012 خوليان هيربرت يَحوز «جائزة خَيِن للرواية غير المنشورة» عن رواية السيرة الذاتية «أغنية القبر»، وهي تحكي عن موت والدته -وهي بائعة هوى سابقًا- بسرطان الدم.

2012 الشاعرة وكاتبة المقالات والمترجمة المكسيكية تيدي لوبيز ميل تنشر مجموعتها الشعرية «كتاب التفسيرات».

2013 رواية ألڤارو إنريكه «موت مفاجئ» تفوز بِـ «جائزة هيرالد للرواية».

2013 سمكة حمراء اسمها «أوبلوموف» تموتُ من نوعٍ من الاكتئاب في مجموعة غوادالوبي نيتل القصصية القصيرة: «زواج السمكة الحمراء».

2013

وفاة الطريق السريع في نُزُل بوينس دياز عقبَ إجراء مزاد علني مجازيّ في حانة «سرّ الليل».

2012 باولا أبرامو تنشرُ مجموعتها الشعرية «*Fiat Lux* / لِيكُن نور».

مارس **2012** الفنان أوغو رونديتون، المقيم في نيويورك، يقيمُ معرضًا يتضمّن لوحات مادونا للرسام السويسري السريالي «هانس شيغا» حيث استُبدِلت الأسنان في اللوحات بحصىً صفراء اللون.

8 أبريل **2013** افتتحت مؤسسة/ مجموعة خوميكس معرضها «*El cazador y la fábrica*. / الصياد والمصنع».

2013 سكّ عملة معدنية من فئة اثنين يورو احتفالًا بالذكرى الـ 2400 لتأسيس الأكاديمية الأفلاطونية.

خاتمة

هذا الكتاب هو حصيلة تعاونٍ مُتعدِّد الأطـراف. في شهر يناير من عام 2013 كُلِّفتُ بكتابة عمل من وحي الخيال من أجل بيانٍ عن «الصيّاد والمصنع»، وهو معرضٌ فنّي برعاية وتنظيم ماغالي آريولّا وخوان غايتان، في معرض خوميكس(Galería Jumex)، الكائن في حي إيكاتيبيك المهمّش الشبيه بالأراضي القَفر، خارج مدينة مكسيكو سيتي. كانت الفكرة من المعرض، ومن مهمّتي، هي إعمال الفكر في الجسور -أو عدمها- التي تَصِل بين الأعمال الفنية، والمعرض، والسياق الأوسع الذي شكّل المعرض جزءًا منه.

تتلقى مجموعة خوميكس، وهي واحدة من أهم مجموعات الفن المعاصر في العالم، تتلقى تمويلها من مصنع العصير «جروبو خوميكس[1]». ثمّة فجوة، بالطبع، ما بين العالمين: المعرض الفنيّ والمصنع، الفنانين والعمال، الأعمال الفنّية والعصير. وتساءلتُ، كيف بإمكاني ربط العالمين البعيدين ولكن المتجاورين، وهل يمكن للأدب أن يلعب دور الوسيط؟ واعتزمتُ الكتابة بطريقة عَرَضية – بل مجازية – عن عالم الفن، والتركيز على الحياة في المصنع. كما أنني قررتُ ألّا أكتبُ كثيرًا عن عمّال المصنع، بل من أجلهم، مقترحة بذلك نهجًا يبدو مناسبًا لتحقيق هذه الغاية.

في أواسط القرن التاسع عشر، ابتُكِرت في كوبا مهنة «قارئ التبغ» الغريبة. تُعزى الفكرة إلى الصحافي والناشط المناهض للعبودية نيكولاس أسكاراتيه، الذي وضع الفكرة حيّز التنفيذ في معملٍ للسّجائر. بُغية التقليل

1- Grupo Jumex: خوميكس – ماركة عصائر مكسيكية معروفة.

من الملل الناجم عن العمل المتكرر، يقرأ «قارئ التبغ» بصوت عالٍ على العمال الآخرين أثناء تصنيعهم للسجائر. كان إميل زولا وفيكتور هوغو من بين المفضّلين للعمّال، وإن كانت قد قُرِئت عليهم مجلّدات ضخمة من التاريخ الإسباني. امتدّت هذه المهنة إلى دول أخرى في أميركا اللاتينية، لكنها اختفت في القرن العشرين. ومع ذلك، ما يزال قرّاء التّبغ شائعين في كوبا. في نفس الآونة تقريبًا التي ظهرت فيها هذه المهنة، ابتُكِرت أيضًا الرواية الحديثة المتسلسلة. في عام 1836 نُشِرت رواية بلزاك العانس (*La Vieille Fille*) في فرنسا، ونُشِرَ كتاب ديكنز «مذكرات بكوِك» في إنكلترا. وبالنظر إلى توزيعها في سلسلة كُتيّبات ميسورة التكلفة، فقد بلغت جمهورًا غير معتاد تقليديًّا على قراءة القصص والروايات. أدركتُ أنه بإمكاني دَمج هاتين الأداتين الأدبيتين اللتين أثبتتا ذات مرة كفاءتهما في سياقات لا تختلف كثيرًا عن تلك التي كنتُ أواجهها. وفي سبيل إحياء عادات القراءة والنشر تلك، وبهدف التعلّم منها أيضًا، انتويتُ كتابة رواية على دُفعات، الجزء تلو الجزء، للعمّال الذين سوف يتسنّى لهم فيما بعد قراءتها بصوتٍ عالٍ في المصنع.

كانَ فريق خوميكس داعمًا ومُتحمّسًا، وعمدَ إلى تهيئة المكان والشروط اللازمة للقيام بالقراءات. كتبتُ الجزء الأول، الذي طُبِعَ في كُتيّبات بسيطة منخفضة التكلفة، ثمّ وزِّعتْ على العمال. أثارت الفكرة اهتمامَ عددٍ من العمّال، وساعدت لورينا مورينو، مُعاونة مُنسّق المعرض، في تشكيل وإدارة نادي قراءة صغير صارَ يُعقد كل أسبوع لقراءة النصوص ومناقشتها. بدأت بإرسال أجزاء جديدة أسبوعيًّا؛ وكان فريق العمل في مؤسسة خوميكس يطبع الكتيّبات ويوزعها. بموافقةٍ من الجميع، سُجِّلت جلسات القراءة ثم أرسِلتْ إليّ في نيويورك. كنتُ أستمع للتسجيلات، وأدوّنُ تعليقات العمال وانتقاداتهم، وبالأخص أحاديثهم العشوائية بعد القراءة والمناقشة. ثمّ كنتُ بعد ذلك أكتبُ الدفعة التالية، وأرسلها إليهم، وهكذا. لم يروني قطّ، ولم أرهم. أنا سمعتهم، وَهم قرؤوا لي. ساعدني اثنان من أعضاء فريق خوميكس، وهما خافيير ريفيرو وإل بيرو، في التقاط وجمع صور للأعمال الفنية والمعرض الفني والحيّ، الأمر الذي أتاحَ لي، بَصريًّا على الأقل،

التنقل في الأماكن التي كنتُ أكتبُ عنها، واستكشافها. كانت الصيغة، لو أن هناك واحدة، شيئًا من هذا القبيل:

ديكنز + MP3 ÷ بلزاك + JPEG.

مع الجزء الأخير من الكتابات أرسلتُ إلى العمال أيضًا تسجيل MP3 بصوتي، شكرتُهم فيه على وقتهم وَإسهاماتهم. كنتُ أكتبُ تحتَ الاسم المستعار غوستاڤو سانشيز سانشيز، وفكّرتُ بأنّه من المهم إتمام دائرة الألفة والمؤانسة التي كنا قد أنشأناها، وذلك من خلال سماعهم صوتي الحقيقي. من المرجح أن ردَّ فِعلهم لدى سماع صوتي المتحدث كان شبيهًا بِردّ فعلي، بعد شهور، عندما حضرَ اثنان من العمال إلى حفل إطلاق الكتاب في متحف «كاريو خِيل للفنون» في مكسيكو سيتي. حينذاك استُكمِلت الدائرة حقًّا.

العديد من القصص الواردة في هذا الكتاب مَنبعها حكايات العمال الشخصية؛ على الرغم من تعديل الأسماء والأمكنة والتفاصيل. المناقشات التي دارت بين العمال تحكّمت في مجرى السرد أيضًا، ودفعتني للتَّفكُر في أسئلة قديمة من منظور مُتجدّد: كيف تكتسب القطع الفنية قيمةً ليس داخل السوق المختصة بالاستهلاك الفني، فقط، ولكن (بشكلٍ أو بآخر) خارج حدود السوق البَيِّنة أيضًا؟ كيف يمكن أن يؤثّر إقصاء التحفة الفنية أو اسمها من سياقها في المعرض أو المتحف أو من البانثيون (المَجمَع) الأدبي – إجراء دوشامبي[1] عكسيّ – على معناها وتأويلها؟ كيفَ يُبدِّل الحوار، والسَّرد، والتوقيعات الأدبية، أو الأسماء من الطريقة التي نستشعر بها العمل الفني أو النصوص الأدبية؟ وكانت نتيجة تلك الشواغل المشتركة هي هذه «الرواية – البحث» الجماعيّ حولَ إنتاج القيمة والمعنى في الفنّ والأدب المعاصرين.

أودُّ شُكرَ كثير من الأشخاص على مساهمتهم وتفانيهم، ولكن أكثر من

1- الرسام والنحات ولاعب الشطرنج والكاتب الفرنسي مارسيل دوشامب (1887-1968) ارتبطت أعماله بالتكعيبية والدادائية والفن التصويري. وكانَ لعمله تأثير كبير في التحولات التي تعرضت لها الفنون التشكيلية المعاصرة، وشكلت انقلابًا على الجماليات التقليدية للفن في القرن العشرين.

أي أحد آخر، أودُّ أن أشكر عمّال المصنع الذين قرؤوا هذه القصة وكتبوها معي، بوجهٍ ما: إيفلين آنخيليس كويتانا، أبريل فيلاثكيث روميرو، تانيا غارسيّا مونتالفا، ماركو أنتونيو بيللو، إدواردو غونزاليس، إرنستينا مارتينيز، باتريشيا مينديز كورتيس، خوليو سيزر بيلارديه ميخيا، وديفيد ليون آلكالا.

وفي الختام، ينبغي القول إنّ أشياء كثيرة قد تغيّرت منذُ الأجزاء الأولى التي قرأها العمال في المصنع، وحتى هذه النسخة النهائية من الكتاب باللغة الإنكليزية. في حقيقة الأمر، الكتاب الإسباني مختلفٌ أيضًا عن الكتاب الإنكليزي، كما هو الحال مع كُتبي السابقة، التي راجعتها وأعدتُ كتابتها بالإنكليزية بصورة شاملة، لدرجة أنني أفضّلُ اعتبارها إصدارات أكثر منها ترجمات. فضلًا عن ذلك تحتوي هذه النسخة الإنكليزية «كُتيّبًا» مكتوبًا بالكامل بقلم مُترجمتي السيدة كريستينا ماكسويني. إن خطّها الزمنيّ لهوَ خريطة وفهرس ومسردٌ للكتاب، الأمر الذي يزعزع القول المأثور والمتقادِم حولَ وجوب احتِجاب المترجِم، ويقترحُ نمطًا جديدًا للتعامل مع الترجمة؛ فهو من جهةٍ لا يعتمد على تقريب الكاتب من القارئ - من خلال تبسيط النص المترجَم وتمويهه - ولا على تقريب القارئ من الكاتب - بواسطة تحويل النص إلى نوعٍ من «الإنكليزية الدّخيلة». بدأ هذا الكتاب ضمن إطارٍ تعاونيّ، وأحبُّ اعتبارَ الأمر على أنه تعاون مستمر، حيث كل طبقة جديدة تُعدِّل المحتوى بأكمله.

تنويه بالمصادر

تشتملُ «قصّة أسناني» على إشارات إلى كثيرٍ من النصوص، فُسِّرت في مُعظم الحالات تفسيرًا خلّاقًا، أو أُعيدت صياغتها، أو أنها خضعت لتعديل طفيف من خلال ترجمات متعددة. الصفحة رقم 9: غايوس سوتونيوس ترانكيلوس، اقتباس من «القياصرة الاثنا عشر»، ترجمة روبرت غريفز، الصادر عن كتب بنغوين، سنة 1957. الصفحة رقم 12: اقتباس من كتاب أميركا، لصاحبه جان بودريار، بترجمة كريس تيرنر، والصادر عن دار فيرسو، سنة 1989. الصفحة رقم 20: ثيربانتس. الصفحة رقم 22: ميشيل فوكو، مقتطف من «حياة رجالٍ سيئي السُّمعة» فصل السُّلطة: أعمال فوكو الأساسية 1954–1984، المجلد الثالث، ترجمة روبرت هيرلي، الصادر عن نيو برس، 2001. الصفحة رقم 27: ميشيل دي مونتين، اقتباس من مقالته «عن التجربة». الصفحة رقم 30: تشارلز لامب، اقتباس من «حياة ورسائل وكتابات تشارلز لامب»، المجلد الثاني.

الصفحة رقم 30: غلبرت كيث تشيسترتون، اقتباس من مقالة «اشتهاء الأرض» ضمن كتاب «إخطارات ومناقشات» الصادر عن دود ميد وشركاه، 1911. الصفحة رقم 35: مارسيل بروست – «ذكريات أشياء مضت: طريق سوان»، ترجمة تشارلز كينيث سكوت مونكريف، والصادر عن هينري بولت، 1922.

الصفحة رقم 45: دانييل خارمس، اقتباس من «اليوم لم أكتب شيئًا: الكتابات المختارة»، دانييل خارمس. آرديس للنشر، 2007. الصفحة رقم 51: مستوحى من سطرٍ لشكسبير في «جعجعة ولا طحن» أو «كثير من اللغط

حول لا شيء». الصفحة رقم 60: مستوحاة من أقوال فينيس لومباردي، ثيربانتس، وحِكم وأقوال لاتينية وصينية وإسبانية غير منسوبة لأحد. الصفحة رقم 73: اقتباسٌ مستندٌ إلى مقتطفات من «أطروحات حول فلسفة التاريخ» لوالتر بنيامين من كتاب إضاءات. دار نشر شوكن، 1968.